اسم الدرس : تفسير سورة الفتح (٥) | الآيات [١٧ : ٢٥]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

❖ مقدمة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

نستكمل بإذن الله -عزّ وجل- ما بدأناه في وقفات مع سورة الفتح، اسأل الله أن يجعل هذه السورة فتحًا لنا في ديننا ودنيانا وآخرتنا، وأن يجعلنا من أهل القرآن؛ الذين هم أهل الله وخاصته، وأن يرزقنا أجر تلاوة القرآن ومدارسته، وأن يوفقنا للعمل بكتابه -سبحانه وتعالى-.

تكلمنا في المرات الماضية عن آية المبايعة {إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ}[الفتح: ١٠]، ثم ذكرنا أن الله -عزّ وجل- ذكر في هذه الآية **أن الناس ينقسمون إلى قسمين**: قسم يُوفي بهذه البيعة، وقسم ينكث ويتخلف.

ثم ذكر الله -عزّ وجل- قسمًا هو أشبه بقسم ثالث لكنّه مندرج فيمن نكث، وهو القسم الذي رفض من البداية أن يسير مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، رفض ابتداءً أن يسير مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكان في عِداد المتخلّفين الذين خَلَّفَهم الله -عزّ وجل- ولم يخرجوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، فهم يُلْحقون بقسم الذين ينكثون في البيعة والعهد مع النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ثم بيّن لنا الله -عزّ وجل- أن هؤلاء المتخلّفين الذين خلّفهم الله -عزّ وجل- يعتذرون بأعذار واهية، كما ***قال ابن كثير*** في كلمة رائعة، قال: "يريدون أن يجعلوا تخلّفهم هذا تخلّف معصية وهو تخلّف نفاق".

كما تحدثنا في المرة الماضية؛ أن هناك دركات للنفاق، فهم يريدون أن يقولوا أن سبب جلسوهم في المدينة مجرد معصية، ولكن فضحهم الله -عزّ وجل- وأخبرنا أن هذا التخلّف كان نفاقًا منهم، وسوءَ ظنٍ بالله -سبحانه وتعالى-.

ثم بيّن الله -عزّ وجل- هذا كما في الآية {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّه}[الفتح: ١٠] ذكرت الآية أن هناك أناس ستنكث وأناس ستوفي، فهذا الترتيب يطلق عليه اللف والنشر المرتب.

فبدأت الآية بالذين نكثوا وبينت أعذارهم الواهية، وفضحتهم ثم وعظتهم ثم بينت أن هناك قسمًا لم يَنْسَه الله -عزّ وجل- وهم الذين تخلفوا لعذر، فقال الله -عزّ وجل- {لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ} وكأنّ الذين تخلفوا لعذر كانوا يبكون ويتأثرون ويَتَمنَّوْنَ من الله -عزّ وجل- أن ينزّل لهم آيات تَعْذُرهم، فنزلت الآيات {لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ}.

لأن المؤمن الذي كان يتخلف عن نصرة النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يبكي حتى وهو معذور كما قال ربنا -سبحانه وتعالى- {وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ}[التوبة: ٩٢] أي قال النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم {قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ}، ماذا يحدث عندها؟ {تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً} بالرغم من أنه معذور وعذره الله -عزّ وجل- إلا أنه يبكي بفيضان الدموع {وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ}[التوبة: ٩٢].

❖ آية الرضا

ثم قال الله -عزّ وجل- في هذه الآية العظيمة التي سنتحدث عنها اليوم ونبدأ بها ((آية الرضا))، آية المؤمن يتعجب كيف استطاعت قلوب الصحابة أن تتحملها؟ كيف ساروا على الأرض بعد سماعهم

لهذه الآية؟ كيف كان حالهم وهم يسمعون كلام الله -عزّ وجل- ينزل على النبي -صلى الله عليه وسلم- بالرضا عن ذواتهم بأعيانهم؟!

{لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ} ليس عن عمومهم، أنت عندما تسمع آية {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا...} [البقرة: ٢٥٧] تكاد تذوب شوقًا لهذه الولاية، رغم أن هذا وعد عام تحتاج إلى شروط لتحقيقه حتى تنال هذه الولاية؛ ولكن تتمنى أن تكون فيهم، تشتاق لتكون منهم، يمكن لآية كآية {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضي} [الضحى: ٥]، أو {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا} آية تعطيك بشريات تعيش بها في الحياة، رغم أنّ هذا الوعد وعد عام وليس خاص، فما بالكم بهذا الوعد الذي جاء بأعيانهم، بذواتهم، بوصف الفعل ومكانه وتحديده.

{إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} آية عجيبة جدًا، آية الرضا؛ هذا المقام العظيم الذي يأتي غالبًا مع المجاهدة والبذل وشكر النعمة، كما جاءت في سورة التوبة {وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ} [التوبة: ٧٢] أي أن الرضا من الله -عزّ وجل- أكبر من كل نعيم في الجنة، كما قال ربنا -سبحانه وتعالى- في الحديث القدسي (أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا)[1]، هذا أعظم من نعيم الجنة، فتخيل أنّهم يُعَجَّل لهم هذا النعيم في الدنيا.

فتسمع الآية بالتأكيد بلام هي لام القسم أو اللام الموطئة للقسم في قوله {لَّقَدْ} فليست [قد] فقط بالرغم أن [قد] تأتي أيضًا للتوكيد لكن جاءت [لَّقَدْ]، {لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}.

[1] عن أبي سعيد الخدري [:إنَّ اللهَ يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ: فيقولون: لبَّيكَ رَبَّنا وسَعدَيكَ، فيقول: هل رَضيتُم؟ فيقولون: ما لنا لا نَرْضى وقدْ أعْطَيتَنا ما لم تُعطِ أحَدًا مِن خَلقِكَ، فيقول: أنا أُعْطيكُم أفضَلَ مِن ذلك؟ قالوا: وأيُّ شيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟
قال :أُحِلُّ عليكُم رِضْواني فلا أسخَطُ عليكُم أبَدًا
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٥٥٥ •حسن صحيح •

بدأت هذه الآيات بالقِسم الذي وفّى بعهده في البيعة، وما نالوه من أجر معنوي وأجر مادى، وتجد في الآيات هنا أنّ المدح الذي نالوه، أو الجوائز التي لهم كثيرة ومبهمة، بصيغ فيها صيغ نكرة -سنذكر لمَ جاءت بهذه الصيغة.

وبعد أن تكلم الله -عزّ وجل- عن الذين تخلفوا والذين نكثوا البيعة والذين لم يخرجوا مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، تكلم عن هؤلاء وأفرد لهم حديثًا عن الجوائز التي نالوها بسبب هذه البيعة، وبدأ بأعظم جائزة قبل الجوائز الأخرى.

قدّم الله الرضا على المغانم فقال ربنا {لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ} ثم قال {وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ} **فقدّم الرضا على المغانم**؛ لأن هذا ما يشغل المؤمن ابتداءً أن ينال الرضا من الملك -سبحانه وتعالى-، لكن كما قال ربنا أيضًا وهو يعلم احتياجات النفس البشرية قال {وأخرى تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ }[الصف: ١٣]، المؤمن أيضًا يحب أن ينتصر، فهو يتمنى رضا الله -عزّ وجل- ويصبر إذا هُزِم أو أُسِر لأنها كانت في سبيل الله -سبحانه وتعالى- لكنه يحب ذلك، فأخبر الله -عزّ وجل- في سورة الصف التي تحدثت عن الجهاد والقتال {وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ} المؤمن أيضًا يحب ذلك.

بدأ الله بالنعمة العظيمة؛ نعمة الرضا {لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ}، أريدك أن تتخيل هذا المشهد، الله رضي عن هؤلاء وقال النبي -صلى الله عليه وسلم-: (لن يدخل النار من أهل البيعة أو ممن شهد البيعة تحت الشجرة أحد)[٢] فهم من أهل الجنة، وقال النبي لهم: (أنتم خير أهل الأرض)[٣].

---

[٢] عن جابر بن عبدالله :لا يَدْخُلُ النارَ أحدٌ مِمَّن بايع تحتَ الشجرةِ
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٣٨٦٠ •**حسن صحيح**

[٣]]عن جابر بن عبدالله [:قالَ لَنا رَسولُ اللَّهِ ﷺ يومَ الحُدَيْبِيَةِ :أنتُمْ خَيْرُ أهْلِ الأرْضِ وكُنَّا ألْفًا وأرْبَعَ مِئَةٍ، ولو كُنْتُ أُبْصِرُ اليومَ لَأَرَيْتُكُمْ مَكانَ الشَّجَرَةِ تابَعَهُ الأعْمَشُ، سَمِعَ سالِمًا، سَمِعَ جابِرًا ألْفًا وأرْبَعَ مِئَةٍ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤١٥٤] • **صحيح**

تخيل! مشهدٌ عجيب؛ كيف أنّهم كانوا ذاهبين لأداء عمرة مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم انقلب الأمر إلى أنّه سيحدث قتال، ثم يحدث الصلح، ثم يعودون مع النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم يذهبون إلى خيبر، كيف كانت تتغير الوِجْهة مع النبي -صلى الله عليه وسلم- وهم لا يترددون في ذلك، يتبعون النبي -صلى الله عليه وسلم-.

{لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ} حقًا هي آية لا تُشْرَح، آية هي أمنية كل مؤمن، نالها هؤلاء {لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ} أثبت الله لهم الإيمان بالألف واللام {الْمُؤْمِنِينَ}، بلغوا كمال الإيمان في هذه اللحظة، وكأنّ المؤمن يحتاج إلى أعمال مُعَيَّنة ليبلغ بها كمال الإيمان فكانت هذه البيعة {لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ}.

متى كان الرضا؟ في لحظة معينة {إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} إذ أي في هذه اللحظة تحديدًا نالوا الرضا {إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}.

❖ نقف مع هذه الآية وقفات:

أولا: متى كانت هذه البيعة؟

قلنا أن سورة الفتح نزلت في الحديبية والقصة في السيرة مسرودة بطولها ونحن سننتقي من أحداث السيرة ما يناسب الموضع الذي نشرح فيه في التفسير.

رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- من غزوة بني المصطلق في شوال، ثم اتجه في شهر ذي القعدة إلى العمرة فكانت الحديبية، ثم رجع النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى المدينة في ذي الحجة وأقام بها معظم شهر محرم ثم انطلق إلى خيبر.

شوال: رجع من بني المصطلق، ذو القعدة: ذهب للحديبية، محرم: ذاهب إلى خيبر، تأمل الفروقات؛ هكذا كانت حياته -صلى الله عليه وسلم- من جهادٍ إلى جهاد، من غزوةٍ إلى غزوة.

هل كانت حياة النبي -صلى الله عليه وسلم- كلها هكذا؟ في مكة كانت كلها بذل ودعوة وكانت إعدادًا له وللصحابة، ثم جاءت في المدينة وكان التحرك.

أحيانًا العامل لدين الله تمر عليه فترة يستعد فيها، تُقَدَّر له ظروف يمكث فيها فترات وسنوات متتالية، الأصل فيها الاستعداد والتلقي، ثم بعد ذلك ينتقل إلى المرحلة الثانية، وكثيرٌ منا لا يريد أن ينتقل إلى هذه المرحلة لصعوبتها وكثرة الحركة فيها والبذل والجهد فيها.

انظر إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وإلى عمره في هذه المرحلة، تقريبًا ٦٠ سنة أو ٥٩ سنة -صلى الله عليه وسلم-، تخيل هذا السن وكل شهر في مكان مختلف وهم في كل ذلك معه، وكان قبل بني المصطلق الأحزاب، وقبل الأحزاب كانت أحد، وبينهم غزوات أخرى، وهم معه، لذلك جاء في ختام السورة من أسباب الفتح {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ} لم يتركوه -صلى الله عليه وسلم- في أي شيء، لا في بني المصطلق ولا في الحديبية ولا في خيبر ولا في فتح مكة ولا في شيء من ذلك كله، كانوا معه لذلك نالوا الرضا.

فهذه أول وقفة مع الآية، حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكيف كانت تتنقل من جُهد إلى جُهد، ومن فتح إلى فتح، ومن جهادٍ وغزوة إلى غيرها -صلى الله عليه وسلم-.

المعنى الثاني: كيف جاءت بيعة الرضوان؟ وسنتكلم على ماذا بايعوا النبي -صلى الله عليه وسلم-..

كانوا هم في المدينة عائدين من بني المصطلق، ثم خرجوا من المدينة، ومعهم الهَدي (الإبل) متجهين إلى مكة لأداء العمرة، وفجأة قريش ترسل جيوشًا وتحدث أحداث ويقول النبي في هذا الوقت: (ويح قريش

أكلتهم الحرب، ماذا لو خلوا بيني وبين الناس)[٤]، وتحدث أحداث ومناوشات سنتحدث عنها في قوله تعالى {وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ}[الفتح: ٢٤]، ويَكُف الله -عزّ وجل- المشركين عن النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم يرسل المشركون مجموعة يَهزمهم أو يَأسرهم النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ويسلك طريقًا آخر ثم يبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- رجلًا كما ورد في السير، واختلفوا في اسمه سواء خِرَاش أو جَوَّاسْ، ويعطيه النبي جَمَلَه ويسمى الثعلب، ويذهب إلى قريش وكادوا أن يقتلوه ثم يفر، وينحروا جمل النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم يهمّ النبي ببعث عمر بن الخطاب فيقول له عمر "ابعث مكاني عثمان فهو له يدٌ عندهم وليس لي من بني عَديّ أحد في مكة يحميني"، فيبعث النبي -صلى الله عليه وسلم- عثمان ليفاوضهم لأنهم ما جاؤوا إلا للعمرة.

فيحبسون عثمان ويقولون له إذا أردت أن تطوف بالبيت فافعل، يريدون أن يحدثوا عداوة بين عثمان والمؤمنين، فيأبى عثمان أن يطوف بالبيت وهنا تظهر شائعة مقتل عثمان لأنهم حبسوه فلم يعد إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وانتشرت شائعة مقتل عثمان.

والصحابة كانوا ذاهبين لأداء العمرة فقط، وأكثر من مشهد يأتي لقريش وكأنها تضطرهم للحرب والنبي - صلى الله عليه وسلم- يرفض ذلك، لكن حينما أُشِيع مقتل عثمان رضي الله عنه ينتقل المشهد مباشرة، لدرجة أنّه في بعض الروايات أن سلمة بن الأكوع كان نائمًا وقت الظهيرة في ظل شجرة،

[٤] يا ويحَ قريشٍ لقد أكلتهم الحربُ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائرِ العربِ. فإن هم أصابوني كان ذلك الذي أرادوا ! وإن أظهرني اللهُ عليهم دخلوا في الإسلامِ وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوةٌ، فما تظن قريشٌ؟ فواللهِ لا أزال أجاهدُ على الذي بعثني اللهُ به حتى يظهرَه اللهُ أو تنفردُ هذه السالفةُ - يعني الموتَ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، فقه السيرة ٣٢٤ • **صحيح** وهو قطعة من حديث طويل في صلح الحديبية وقد أخرجه البخاري

وفجأةً سمعوا نداء النبي –صلى الله عليه وسلم– البيعةَ البيعة، فقاموا على الفور وذهبوا للنبي –صلى الله عليه وسلم– علام نبايع؟ (على الموت)[٥] أو في رواية جابر (على ألا نفر)[٦]، جاءت البيعة في لحظة.

هذا المشهد المهيب الذي نالوا به الرضوان قد حدث في لحظة، ***اللحظات الحاسمة التي يمكن أن يبلغ الإنسان بها الفردوس، قد تأتي في لحظة وأنت غير مستعد، فيجب عليك الاستعداد، تكون مستعدًا في أي وقت***، في لحظة تغير الأمر.

في لحظات بايعهم النبي –صلى الله عليه وسلم–، في لحظة، لذلك أكبر غزوتين شُهِدَ لهما بالخيرية وبالحرمان من النار؛ غزوة بدر والحديبية، والاثنتان جاءتا فجأة، ففي غزوة بدر ثلاثمائة فرد كانوا ذاهبين ليأخذوا العير، ثم ينقلب الأمر إلى حرب، وإلى فرقان بين الحق والباطل، وينتقل المؤمنون من الإتيان بالعير إلى قتال المشركين، ويعاهدوا النبي –صلى الله عليه وسلم– ويقاتلوا معه في بدر.

في الغزوتين ينالوا هذا الأجر العظيم، والاثنتان كانتا فجأة، إذًا اللحظات الحاسمة في حياة الإنسان التي قد ينال بها الرضا والفردوس قد تأتي في لحظة فلابد أن تكون مستعدًا دائمًا.

و أقول أيضًا، والعكس صحيح، إن اللحظات والعياذ بالله التي قد يُصاب الإنسان فيها بالخزي تأتي في لحظة أيضًا، لذلك يروي أنه كان معهم الجَدْ بن قيس ورفض وأبى البيعة، كما قال النبي –صلى الله عليه

---

[٥] عن سلمة بن الأكوع :قُلتُ لِسَلَمَةَ بنِ الأَكْوَعِ :على أيِّ شيءٍ بايَعْتُمْ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يَومَ الحُدَيْبِيَةِ؟ قالَ :علىالمَوْتِ

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤١٦٩] • **صحيح** •

[٦] عن جابر بن عبدالله :كان العبّاسُ آخِذًا بِيَدِ رسولِ اللهِ ﷺ، ورسولُ اللهِ ﷺ يُوثِقُنا، فلمّا فَرَغْنا قال رسولُ اللهِ ﷺ: أخَذْتُ وأعطَيْتُ، قال: فسَألْتُ جابِرًا يَومَئِذٍ: كيف بايَعْتُم رسولَ اللهِ ﷺ؟ أعَلى المَوتِ؟ قال: لا، ولَكِنْ بايَعْناه على ألّانَفِرَّ، قلتُ له: أفَرأيْتَ يَومَ الشَّجَرةِ، قال: كُنتُ آخِذًا بِيَدِ عُمَرَ بنِ الخطّابِ حتى بايَعْناه، قُلتُ: كم كُنتُم؟ قال: كنّا أربَعَ عَشْرةَ مِئةً، فبايَعْناه كُلُّنا إلّا الجَدَّ بنَ قَيسٍ، اختَبَأَ تَحتَ بَطنِ بَعيرٍ، ونَحَرْنا يَومَئِذٍ سَبْعين مِن البُدْنِ، لكُلِّ سَبْعةٍ جَزورٌ.

شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ١٥٢٥٩ •**إسناده حسن** •أخرجه مسلم (١٨٥٦) مختصراً، وأحمد (١٥٢٥٩) واللفظ له

وسلم- (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)[٧]، أحيانًا تحدث مواقف صدمة، فإما أن تصبر وتنال الأجر، وإما والعياذ بالله أن يخسر الإنسان.

وبالطبع المؤمن يسير بتوفيق الله، فلا يقول قائل كيف وإذا جاءت في لحظة وأنا غير مستعد؟، ***فالمؤمن يسير بتوفيق الملك -سبحانه وتعالى-***، فيمكن أن يكون الإنسان يطلب دائمًا التوفيق والعون من الله -سبحانه وتعالى- ويدعو الله -عزّ وجل- أن يهديه سواء السبيل وأن يهديه الصراط المستقيم، حتى إذا جاءت هذه اللحظات يكون الإنسان مُوَفَّقًا من الملك -سبحانه وتعالى-.

إذًا {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ}

إذًا تكلمنا عن:

١. تنقلات حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

٢. وأن اللحظات الحاسمة التي ينال الإنسان بها الرضا تأتي في لحظة معينة، {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ} إذ أي في لحظة معينة هي التي نالوا فيها الرضا.

وهناك آية أخرى تتحدث عن رِضا الله عن المؤمنين في سورة التوبة، حيث قال تعالى {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة}[التوبة: ١١٧].. وسماها الله تعالى {ساعة} فهي لحظة معينة اتخذوا فيها قرار الخروج وكانت لحظة عسيرة، نالوا فيها هذا المقام العظيم وهو مقام التوبة والرضا في آخر حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

---

[٧] عن أنس بن مالك :أَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ، أَتى على امْرَأَةٍ تَبْكِي على صَبِيٍّ لَها، فَقالَ لَها: اتَّقِي اللَّهَ واصْبِرِي، فَقالَتْ: وَما تُبالِي بمُصِيبَتِي فَلَمّا ذَهَبَ، قيلَ لَها: إنَّه رَسولُ اللهِ ﷺ، فأخَذَها مِثْلُ المَوْتِ، فأتَتْ بابَهُ، فَلَمْ تَجِدْ على بابِهِ بَوّابِينَ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، لَمْ أَعْرِفْكَ، فَقالَ: إنَّما الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ، أَوْ قالَ :عِنْدَ أَوَّلِ الصَّدْمَةِ.[وفي رواية]: مَرَّ النبيُّ ﷺ بامْرَأَةٍ عِنْدَ قَبْرٍ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٩٢٦] • صحيح •

فأحيانًا تظل تجاهد وتقوم بأشياء معينة، وفي هذا الوقت أنت مطالب بأن تستمر، لأنك لا تعرف متى تأتي هذه اللحظة، فلا يصح أن تأتي في منتصف الطريق وتقول "كفى لقد تعبت".

لذلك قال تعالى في آية {وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة}[البقرة: ١٩٥]، وفي حديث أبي سعيد الخدري قال "لما انتشر الإسلام وكثر ناصروه قال بعضنا لبعض سرًا دون رسول الله – صلى الله عليه وسلم– لقد انتشر الإسلام وكثر ناصروه، هلا رجعنا إلى دارنا وأصلحنا أموالنا"، فهؤلاء كانوا يتنقلون ما بين الغزوة والغزوة ولم يكن لديهم وقت لإصلاح الأموال فقالوا نكتفي بذلك ونترك غيرنا يُكمل، فعاتبهم الله –عز وجل– وقال: {وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة} فقال رضي الله عنه: "فكانت الإقامة في الأموال والأولاد وإصلاح الأموال وترك الغزو كانت هي التهلكة"، فأكملوا جهادهم حتى ماتوا في سبيل الله.

إذًا فلابد أن تكمل الطريق؛ لأنك لا تعرف متى تكون لحظة الرضا وهي لحظة غير متوقعة، فهم كانوا خارجين لعمل العمرة، والبيعة سببها كان تأخر عثمان وإشاعة خبر مقتله، ليس هدم الكعبة مثلًا، فمن الممكن أن يكون السبب سببًا عجيبًا ومفاجئًا وغير متوقع ينالون به الرضا.

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ} وجاءت بصيغة المضارع لاستحضار هذا المشهد المهيب؛ لئلا ينساه المؤمن أبدًا، {إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ} وهنا ذكر المكان حتى يظل هذا المشهد خالدًا في عقولهم وفي ذاكرتهم إلى أن يموتوا.

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ} أيضًا هذا معنى عظيم جدًا، {فَعَلِمَ} أي الله –سبحانه وتعالى– علم ما في قلوبهم، **والفاء:**

** بعض أهل العلم قالوا الفاء فاء العاطفة، بأنهم ذهبوا ليبايعوه فعلم الله ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم.

** وبعض أهل العلم قالوا أن هذه الفاء هي فاء الفصيحة تأتي كثيرًا في القرآن، ومعناها في اللغة أنها تفصح عن جملة محذوفة، أي فلما بايعوا وقدموا وتقدموا ولم يترددوا علم الله ما في قلوبهم.

{مَا} حرف مبهم،

فما هو الشيء الذي في قلوبهم؟

والغريب في الأمر أنه أتى هنا حرف مبهم {فَعَلِمَ مَا} قال العلماء أن حرف{مَا} هو أكثر حرف مبهم في اللغة؛ لذلك يستعمل في التعجب فعندما تكون متعجبًا من شيء ولا تستطيع وصفه تقول: ما أجمله!

فحرف {مَا} حرف مبهم، لذا قال تعالى في آية أخرى {فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ}[طه: ٧٨] أيضًا {فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡ}[آل عمران: ١٥٩] وقوله: {وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ}[طه: ٦٩] {مَا} هذه تدل على العظمة، والشيء الذي لا يوصف يؤتى له بحرف مبهم وقال تعالى أيضًا {فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ}[البقرة: ٣٦] فما كانا فيه شيء لا يوصف.

{فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ}

❖ ما هو الشيء الذي في قلوبهم؟

اختلف المفسرون عندما أتى الحرف المبهم، لكن العجيب أنه ترتب على ذلك إنزال السكينة {فأنزل السكينة}، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن، هل إذا اطلع الله –عز وجل– على قلوبنا سيجد أشياء ننال بها السكنية والرضا؟!

نحن في مسيرتنا في سورة الفتح نحاول أن نقارن بين المؤمنين والكفار والمنافقين.

قال تعالى في آية أخرى {يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡ}[التوبة: ٦٤]، المنافقون خائفون أن ينزل الله عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، والمؤمنون فرحون باطلاع الله –عز وجل– على ما في قلوبهم، ***أما نحن فماذا؟!***

نسأل الله –عز وجل– أن يطهر قلوبنا وأن يسترنا ولا يفضحنا.

{فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ} فكان الجزاء إنزال السكينة عليهم، **لذلك اختلف المفسرون**: فجمهور المفسرين قالوا أنه كان في قلوبهم شيء طيب فاستحقوا السكينة، وقال أحد المفسرين –يُسمى الإمام مقاتل بن سليمان– قال: فعلم الكراهة والغضب؛ فلذلك أنزل السكينة، فالله اطلع عليهم عندما بايعوا فوجد أنهم يجاهدون أنفسهم وغير قادرين، فأنزل الله السكينة لتتم البيعة ظاهرًا وباطنًا، وهذا القول –وإن كان

ضعيفًا- لكنه أحيانًا يستفاد منه، فأنت إذا كنت غير قادر بقلبك ولكنك تجاهد نفسك ستجد قلبك يلين بعد فترة.

وإن كان جمهور المفسرين رد هذا القول، والإمام مقاتل مفسر بارع ولكنه متهم بالكذب، فعندما ينقل مقاتل بن سليمان -ينقل عن أحد- لا نأخذ برأيه لكن رأي مقاتل نفسه معتبر في التفسير.

وهناك مفسر آخر يدعى مقاتل بن حيان وهذا صدوق في الحديث؛ لذلك نقرأ في التفاسير: "قال المقاتلان" فالمراد بهما مقاتل بن سليمان ومقاتل بن حيان.

فنحن مع رأي الجمهور ولكننا نأخذ الفائدة من قول مقاتل.

رأي جماهير المفسرين -والطبري وكثير من المفسرين لم يذكر غيره- قالوا: أي فعَلم الصدق والإخلاص والعزيمة على الوفاء، فأتم الله -عز وجل- ذلك لهم، بمعنى أنه كان يتمنى أن يكمل البيعة ونوى أن يكمل، فأتم الله له البيعة، فأنزل السكينة فجعله يستطيع إكمال البيعة، مَكَّنَهُ الله من نفسه، ونفسه لم تقُده، بل هو الذي قادها.

وقال الإمام ابن عطية: فعلم ما في قلوبهم من الحب في الدين، من حبهم لعثمان فكانوا يحبون بعضهم بعضًا.

والمفسرون انشغلوا هنا بتفسير {مَا فِي قُلُوبِهِم}: لأن كل الجوائز التي ستذكر هنا كانت بسبب ما في قلوبهم؛ لأنه لم يحدث جهاد فنالوا كل ذلك من السكينة والفتح القريب والمغانم الكثيرة وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها، كل هذا نالوه بسبب ما في قلوبهم، فانشغل المفسرون في فهم ما الذي أحصله في قلبي فأنال به كل هذا؟

فهم عندما بايعوا سواء على الموت أو على ألا يفروا و بايعوا على الجهاد و نصرة أخيهم عثمان، فلما فعلوا ذلك لم يحدث قتال، بل حدث صلح ونالوا الأجر بمجرد البيعة.

{لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ} إذًا فالرضا حدث في لحظة البيعة وليس بعد أن بايعوا وهم ينفذون مثلًا وإنما في لحظة البيعة، فأحيانا تنال على ما في قلبك من عزيمة حتى لو لم يتم الفعل، فإذا حيل بينك وبين الفعل ستأخذ الأجر أيضًا.

وقد أخبر الله –عز وجل– عن إبراهيم عليه السلام أنه جاء بقلب سليم ثم جاء في ختام الآيات أنه بمجرد الاستسلام وهو لم ينفذ الأمر بعد، فلما أسلما وتله للجبين –أي فلما وضع السكين على رقبة ابنه إسماعيل– { وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ * قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ}[الصافات: ١٠٤-١٠٥]، حتى ولو حيل بينه وبين إتمام التنفيذ لكنه نال المرتبة {إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ}[الصافات: ١٠٦] فهو نال المرتبة عند الله –عز وجل– بمجرد العزيمة على ذلك.

وعلى هذه الآراء سيكون تعريف {مَا فِى قُلُوبِهِم}: أي الصدق والعزيمة والإخلاص وحبهم لأخيهم عثمان، فتخيل أن فردًا من كثرة حبه لأخيه المؤمن يريد أن ينصره ولو بنفسه، أن ينال كل هذه الفتوحات فكل هذه الفتوحات جاءت من أجل هذه المعاني العظيمة التي كانت في قلوبهم، والأولى الجمع بين كل هذه الأقوال، والجمع بين كل المعاني والأقوال التي في قلوبهم ونحن لا نعلمها.

فسيدنا إبراهيم عندما ترك السيدة هاجر وابنه إسماعيل في مكة قال {رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِى وَمَا نُعۡلِنُۗ}[ابراهيم: ٣٨]، والمفسرون اختلفوا حول ما في قلب سيدنا إبراهيم، ما الذي يخفيه.

{نُعۡلِنُۗ}: **أي** ما تكلم به من الدعاء.. فقال بعض المفسرين أي ما تكلم به من الدعاء في آخر سورة إبراهيم.

وما كان يخفيه: قال بعضهم أنت تعلم يارب خوفي على ابني وهذا أقل الأقوال وقال البعض الآخر تعلم يارب ما في صدري من جهد وعزيمة ونية وأكثر من ذلك فأنا أترك زوجتي وابني وأكثر من ذلك طلبًا في رضاك، أو تعلم ما في صدري وتعلم ما أخفيه من حرصي على نشر الدين في الأرض.

الشاهد هنا أن المفسرين اختلفوا حول ما يخفيه إبراهيم –عليه السلام– في قلبه، كذلك هنا مشهد البيعة فنحن لن نستطيع أن نعرف ما كان في قلوبهم إلا على قدر اقترابنا من هذه البيعة، وأن نطبق ما هو قريب منها حينها سنشعر ما كان فيها.

{فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمۡ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ} سكينة مخصوصة {فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ}، والإنزال غير القذف فمع المنافقين قال {وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ}{الأحزاب: ٢٦/ الحشر: ٢}.

فهم نالوا الرضا ونالوا السكينة في المستقبل، ثم عوضهم عن صلح الحديبية، لما تركوا مكة ولم يقاتلوا ونزلوا على رأي النبي في عقد الصلح عوضهم الله –سبحانه وتعالى– مغانم وأثابهم فتحا قريباً.

فكلمة {قريبًا} فيها رحمة من الله، ولما لم يحدث فتح مكة عوضهم الله بشيء قريب وليس بعيد، فهم لم ينتظروها كثيرًا مثلما أقول لك "اصبر ستفهم ما حدث قريبًا"؛ فالنتيجة كانت قريبة، {فتحًا قريبًا}.

{وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيما * وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطا مُّسْتَقِيما} [الفتح: ١٩-٢٠]

هذه الآيات فيها أقوال كثيرة:

- الخلاف في {وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً}، ما هي؟
- {مَغَانِمَ كَثِيرَةً} الثانية هل هي نفس الأولى أم غيرها.
- {فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ} ما هي هذه؟
- {وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ} من الناس؟.
- {وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ} من عنكم؟ هل أنتم أم أبناؤكم؟.
- {وَلِتَكُونَ ءَايَةً} ما هي هذه الآية؟
- {وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطا مُّسْتَقِيما} ما هو هذا الصراط؟
- {وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا} ما هي هذه الأخرى؟

كل هذه فيها خلاف، **لماذا هذا الخلاف؟** لأنها كلها بشريات للمستقبل فكانوا يفسرونها بما حدث بعد ذلك، بمعنى أن الصحابة وهم راجعون من الحديبية تأتي إليهم بشريات كثيرة بأن هناك أشياء كثيرة ستحدث، فهناك فتح ومغانم وأشياء أخرى لم تقدروا عليها، وبشريات كثيرة، فكانوا يفسروها مثلًا:

عندما تفتح مكة فيقولون هذه البشرى هي فتح مكة، يحدث فتح خيبر فيقولوا هذه المغانم.

تحدث حنين وهوازن وثقيف يقولوا هذه كذا.

فكان التفسير أنهم يرجعون للأحداث ويفسرون، كان الصحابة يصدقون بكل هذه الوعود وكانوا منشغلين بالرضا فلم ينشغلوا بتفسير ما هو الفتح القريب؟ أو ما هي المغانم؟ لم يكونوا منشغلين بالوعود بل كانوا مستسلمين كل هذا سيأخذونه، ومنشغلين بالرضا.

- {وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحا قَرِيبا}:

** كثير من المفسرين قال أن الفتح القريب هو خيبر ولم يذكر الإمام الطبري غيره.

** وقال بعض المفسرين –من المتأخرين– الفتح القريب المقصود به الفتح الذي حدث في الدعوة.

ولكن جماهير المفسرين قالوا أن الفتح القريب هو فتح خيبر، {فَتحا قَرِيبا * وَمَغَانِمَ كَثِيرَة}: **أي** أنكم ستفتحون خيبر وستنالون مغانم منها، أي وأثابهم فتحًا قريبًا في خيبر تأخذون منه مغانم كثيرة، وكثير من الصحابة قالوا ما شبعنا إلا بعد أن فتحت خيبر، {مَغَانِمَ كَثِيرَة} من خيبر، مغانم نكرة وأيضًا كثيرة، كانت خيبر فارق في الماديات التي استطاعوا بها أن يجهزوا الجيوش ويتعاملون بها بعد فتح خيبر.

{وَأَثَٰبَهُم فَتحا قَرِيبا} قلنا فتحًا قريبًا الجماهير على خيبر و{مَغَانِمَ كَثِيرَة} أي مغانم من خيبر، بعضهم قال {فَتحا قَرِيبا} أي فتح في الدعوة ومغانم من خيبر.

{وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا} لماذا؟ لأنهم وهم عائدون من الحديبية لم يستطيعوا أن يفتحوا مكة القريبة فما الفتح القريب الذي سيحدث؟ فكأن الله يقول لهم ثقوا في وعد الله، {وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا} الله قادر، {حَكِيمًا} فالله حكيم له حكمة في عدم فتح مكة الآن، وأنك تذهب إلى خيبر الآن، له حكمة في ذلك أنت لا تعلمها، فتلقوا البشرى بالقبول.

- {وَمَغَانِمَ كَثِيرَة يَأخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيما}، {عَزِيزًا}: أي له القدرة على إنفاذ وعده، و{حَكِيمًا}: أي له الحكمة في تغيير الوجهة من مكة لخيبر.
- {وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَة تَأخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُم هَٰذِهِۦ}

سنركز على رأي جمهور المفسرين ونصدر به في كل الآيات –ونقصد بجمهور المفسرين الأغلب–، قال كثير من المفسرين {مَغَانِمَ كَثِيرَة} أي لن تتوقف الفتوحات والمغانم عند خيبر، بل ستستمر الفتوحات، وبعد صلح الحديبية ستحدث نقلة في التعامل مع العالم، فستذهبون إلى فارس والروم وهوازن وثقيف في حنين و ستنالون مغانم كثيرة في العالم؛ لذلك قيل في تعريف {وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَة تَأخُذُونَهَا} أي في العالم إلى أن تقوم الساعة، فلن تتوقف الفتوحات إلى أن تقوم الساعة.

{فَعَجَّلَ لَكُم هَٰذِهِۦ} أي فعجل لكم خيبر، فلو اخترنا رأي الجمهور في معنى وعجل لكم هذه، أن المقصود بها فتح خيبر سيكون تفسير قوله {وَكَفَّ أَيدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُم} المقصود به في فتح خيبر.

ولكن كيف كف الله أيدي الناس عنا أثناء فتحنا خيبر؟ فيها قولان، ***الأول:*** أن قبيلة أسد وغطفان كان لها معاهدات مع اليهود، وعندما هَمَّ النبي بفتح خيبر وقفوا مع اليهود واتفقوا على قتال النبي –صلى الله عليه وسلم– فصرفهم الله وقذف في قلوبهم الرعب.

والقول الثاني الذي اختاره الإمام الطبري –وهذا ما نميل إليه–: أنهم عندما ذهبوا لقتال اليهود في خيبر كان هناك بقايا من اليهود الذين عقدوا معاهدات مع يهود المدينة ومعارف لليهود الذين حول المدينة فهموا انتقامًا لليهود أن يُغِيروا على أولاد المسلمين وعيالهم ونسائهم وأموالهم في المدينة.

فالمسلمون ذهبوا إلى خيبر وجاءهم خبر أنه سيحدث إغارة على أولادهم ونسائهم ويأخذوهم سبيًا ويقتلون الأولاد ويأخذون أموالهم في المدينة، ولكن الله –عز وجل– كف أيدي اليهود عن أولاد ونساء الصحابة، فلم يحدث ذلك بالرغم أنهم هموا بذلك فلم يحدث ذلك، فالله يقول لهم: سأكف أيديهم عنكم أي عن عيالكم بغير سبب.. لماذا؟ هذا من البشريات، فدائمًا الله –عز وجل– في الطريق يضع لك بشريات علامات تخبرك أنك تسير في الطريق الصحيح.

فلماذا فعل الله لهم ذلك؟

لأن ما حدث في الحديبية شيء من الممكن أن يجعل الإنسان يضطرب، فدائمًا عندما يقدر الله موقفًا صعبًا –وهذه من معاملة الله للبشر– مثل الحديبية ويكون فوق طاقة الإنسان والإنسان يستسلم لأمر الله –عز وجل– حتى لو لم يفهم الحكمة منه فالله يرسل له بشريات ويظهر له أشياء أو يرسل له رؤيا أو يحدث موقف عجيب، فنجد أن هناك مثلًا من يدخل في الإسلام بدون سبب، ففي قمة الاستضعاف الذي نعيشه تجد مواقف عجيبة تحدث بغير أسباب سوى أنها تثبيت لأهل الإيمان.

وفي ذلك قال الحسن البصري في حديث النبي –صلى الله عليه وسلم– (فإنَّه لا يَأْتي علَيْكُم زَمانٌ إلّا الذي بَعْدَهُ شَرٌّ منه)[٨] وفي رواية: (لا يأتي على الناس يوم إلا والذي بعده شر منه)[٩] فقيل له: عمر

[٨] عن أنس بن مالك: أَتَيْنا أنَسَ بنَ مالِكٍ، فَشَكَوْنا إلَيْهِ ما نَلْقى مِنَ الحَجّاجِ، فَقالَ: اصْبِرُوا، فإنَّه لا يَأْتي علَيْكُم زَمانٌ إلّا الذي بَعْدَهُ شَرٌّ منه، حتّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ سَمِعْتُهُ مِن نَبِيِّكُمْ ﷺ.

بن عبدالعزيز؟ -أنه أفضل ممن قبله- فقال: "لابد من تنفيس" فأحيانًا من رحمة الله أن يفعل لهم شيئًا صغيرًا للتنفيس.

فكف أيدي الناس عنكم أي أيدي حلفاء اليهود عن أولادكم فسمي العيال والأولاد "عنكم" كأنهم هم ولم يقل عن أولادكم؛ لأن الولد والزوجة بمنزلة النفس فأنت تخاف عليهم مثلما تخاف على نفسك فقال {وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ} فالله فعل هذا لتكون -هذا الكف- آية للمؤمنين، آية أي علامة أي لتستمر على الطريق، يوجد بشريات في الطريق.

- {وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطا مُّسۡتَقِيما} فما هو الصراط المستقيم؟ البعض قال: إنه كل الإسلام، ولكن هناك قاعدة هامة في التفسير تقول: أحيانًا تأتي ألفاظ يسمونها ألفاظًا مجملة أو ألفاظًا كلية، مثل كلمة التقوى تشمل أشياء كثيرة والعمل الصالح والحسنة والسيئة والإيمان، فهذه ألفاظ مجملة، أحيانًا يكون لها معنى مخصوص والذي يخصصه السياق:

** مثل تفسير الطبري في قوله: {وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا}[الأنعام: ١٣٠/٧٠ الأعراف: ٥١] يقول المقصود بالحياة الدنيا أي: حب الرئاسة.

** أو {مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ}[الأنعام: ١٦٠/النمل: ٨٩/القصص: ٨٤] فيقول الحسنة هنا التآلف بين المسلمين، يفسرها بمعنى خاص وليس معنى عام.

** وقوله { أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ}[النحل: ٤٥] يقول أن السيئات هنا ليس المقصود بها كل السيئات وإنما المقصود : التدليس على المؤمنين، أنهم عندما يسمعون القرآن يقولون عليه أساطير الأولين، فهذا التدليس هو السيئة.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٠٦٨ | **[صحيح]**

[٩]]عن أنس بن مالك [:اصبِروا؛ فإنَّه لا يأتي عليكم عامٌ -أو يومٌ- إلّا الذي بعدَه شَرٌّ منه، حتى تَلقَوْا رَبَّكم، سَمِعتُهمِن نَبيِّكم ﷺ.

شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ١٢٨١٧ •**إسناده صحيح** على شرط الشيخين •أخرجه البخاري (٧٠٦٨)، والترمذي (٢٢٠٦)، وأحمد (١٢٨١٧) واللفظ له

** {يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ}[البقرة: ٢٧٨] فالمقصود من قوله {ٱتَّقُوا ٱللَّهَ} **أي**: في أخيك -في سورة الحجرات مثلًا- لأن السياق يتحدث عن الأخوة.

وهنا قيل أن المقصود بالصراط المستقيم: هو طريق التوكل والتفويض، وهذا نص عليه الإمام الواحدي وابن الجوزي، قالوا أن الله يعلمك التوكل، انظر إلى رحمة الله، فأحيانًا يعلمك الله كيف تتوب ويكرهك في الذنب، ويجعلك تحبه ويضعك في موقف ويجعلك تدعو ويأتي إليك بالدعاء الذي تدعيه لتحبه، فأحيانًا هناك مواقف لا يستطيع الدعاة أن يوصلوها للناس، فالله يفعل مواقف ليوصلها للناس، الله يعلمهم التوكل كي يتوكلوا عليه.

{وَيَهدِيَكُم صِرَٰطا مُّستَقِيما} كي يعلمكم أن بعد ذلك هناك طريق طويل، فلا تحزن بأنك ذاهب لخيبر وتركت الأولاد وتركت كل شيء، فلا تحزن طالما أنت تسير على أمر الله ومع رسوله، فلا تنشغل بما سيحدث، فيفاجأ أنه لم يحدث شيء، ومن كانوا سيهمون بقتال النساء والأولاد في المدينة لم يفعلوا شيئًا، فالله ألقى في قلوبهم الرعب، وأن أسد وغطفان بعدما كانوا سيساعدوا اليهود تخلوا عنهم، كيف حدث هذا؟ كل هذا من عند الله.

فعلينا أن نتعلم من هذه المواقف أن نتوكل على الله، فالله يفعل لك مواقفًا عجيبة في حياتك؛ حتى يعلمك التوكل، وللأسف أحيانًا الشيطان يدخل لك في هذه المواقف ليقنعك أن هذه المواقف لن تتكرر مرة أخرى والله يقول: {وَقَد خَلَقتُكَ مِن قَبلُ وَلَم تَكُ شَيـًٔا}[مريم: ٩] قالها الله لسيدنا زكريا عندما تعجب من أن رزقه الولد.

{كُلَّ يَومٍ هُوَ فِى شَأن}[الرحمن: ٢٩] -يوم ليس مقصود بها ٢٤ ساعة- ففي كل مقدار معين من الزمن يحدث في الكون حدث عجيب ومتكرر؛ فالشمس تطلع كل يوم، والنبتة تخرج كل يوم، ونفسك يخرج كل لحظة، وقلبك يدق كل لحظة، فالعجائب في الكون متكررة.. فلماذا عندما يحدث موقف عجيب تشعر وكأنه لن يتكرر؟!

فالله يعلمهم طريق التوكل {وَيَهدِيَكُم صِرَٰطا مُّستَقِيما}.

إذًا شرح الآية على الأقوال المختلفة للمفسرين:

❖ القول الأول:

{وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَة} ستأخذوها من فتوحات فارس والروم وكل الفتوحات القادمة.

{فَعَجَّلَ لَكُم هَٰذِهِ} **أي**: خيبر.

{وَكَفَّ أَيدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُم} **أي**: كف أيدي أسد وغطفان عنكم أنتم، أو كف أيدي حلفاء اليهود عن أموالكم وعيالكم في المدينة.

{وَلِتَكُونَ ءَايَة} **أي**: هذا الكف.

{وَيَهدِيَكُم صِرَٰطا مُّستَقِيما} **أي**: التوكل.

❖ القول الثاني: قال غيرهم:

{وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَة تَأخُذُونَهَا} **أي**: من خيبر.

{وَأَثَٰبَهُم فَتحا قَرِيبا} **أي**: فتح في الدعوة بسبب الصلح. {وَمَغَانِمَ كَثِيرَة} **أي**: من خيبر، وعدكم الله هذه المغانم الكثيرة من خيبر.

{فَعَجَّلَ لَكُم هَٰذِهِ} **أي**: فعجل لكم الصلح؛ لأن الصلح يساعد في انتشار الدعوة، فعجل لنا الصلح؛ لأن هذا سيساعد في انتشار الدعوة.

{وَكَفَّ أَيدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُم} **أي**: وكف أيدي قريش عن قتالكم، فكان من الممكن أن يتضخم الأمر في قريش وتصر على القتال وترفض الصلح، فكف الله أيدي الناس -أي قريش- عنكم.

{وَلِتَكُونَ ءَايَة} **أي**: ليكون هذا الصلح آية، واللام هنا يسمونها لام العاقبة أي: ليكون مآل الصلح وعاقبة الصلح آية مبهرة وعجيبة، أي تفاجأ أن هذا الصلح أدى إلى إسلام ألوف من الناس، وليكون هذا الصلح آية للمؤمنين.

{وَيَهدِيَكُم صِرَٰطا مُّستَقِيما} **أي**: ويهديكم إلى التصديق لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- لأنهم كانوا لا يعلمون لماذا يفعل النبي هذا، فالله يعلمنا في هذا الموقف أن نسمع كلام النبي -صلى الله عليه وسلم- حتى لو كنت لا تفهم الحكمة، فهنا معنى الصراط المستقيم تغير فهنا بدل أن يكون معناه التوكل سيكون معناه الاستسلام لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم-.

ونحن نميل للقول الأول وهو لأغلب المفسرين، ومن حكمة الله أنها -البشريات والأحداث- تترك هكذا، لأن هذه آيات نزلت لتخبر عن أحداث ستحدث في المستقبل، والاختلاف هذا مبهر؛ لأنه يجمع بين كل الأحداث التي حدثت بعد ذلك، فالألفاظ جاءت مناسبة لكل الأحداث والبشريات التي حدثت بعد ذلك.

كل هذه الأشياء استمرارًا للأحداث والجوائز التي حدثت بسبب {فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِم} وأتى سيل من الفتوحات بعد آية الرضوان.

{وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا قَد أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىءٖ قَدِيرا}

{وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا} اختار الإمام الطبري قول الإمام قتادة: أن أخرى لم تقدروا عليها أي: فتح مكة، فقال: أنكم كنتم ذاهبين لعمل العمرة، ثم بايعتم على الموت، ثم لأسباب قدرية لم تقدروا على ذلك.

{أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا}: **أي** يسلمكم إياها سهلة، فهذه لله فسوف تحدث أسباب عجيبة.

فالصلح كان عشر سنوات، ثم بعد سنتين يعود النبي وهو فاتح لمكة ويدخل مكة سهلة بمناوشات خفيفة.

{قَد أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا} أي: بقدرته وحده -سبحانه وتعالى- تنالون هذا الفتح لا بجهدكم، بمعنى أن الله سيرتب أحداثًا قدرية عجيبة تحدث بترتيب عجيب، فالله فعلها وأحاط بها كي يحدث فتح مكة.

{وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا قَد أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا}: **وقيل** وأخرى لم تقدروا عليها: حنين؛ لأنها كانت صعبة، {أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا}: **أي** قدر الله أي بعد أن تفروا من حنين سترجعون؛ لأن الله هو من رجعكم مرة أخرى.

وقيل {وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا قَد أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا}**أي**: فارس والروم.

{وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا} **أي** من قبل ذلك، فالعرب أحيانًا كانوا يعملون خدم عند فارس والروم فكان عندهم مهابة من فارس والروم.

{وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا}: **أي** هذه المعارك العظيمة التي كنتم تهابونها أحاط الله بها، فمن المعاني الجميلة أن الله كان يحتفظ بهذه المغانم الكثيرة للمسلمين ،فلم تغر فارس على الروم وتأخذ مغانمها أو تغير الروم على فارس وتأخذ مغانمها بمعنى أن هذه المغانم كانت محاطة ومنتظرة المسلمين ليفتحوها هم.

فالله يخبرنا أنه هو الذي يفتح لنا الفتوحات.. هو الذي ييسر لنا الأمور بقدرته –سبحانه وتعالى–.

كما قلنا في {يَدُ ٱللَّهِ فَوقَ أَيدِيهِم} من معانيها بقوته لا بقدرتك بفتحه لا بجهدنا، {وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا قَد أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا} فهذه كلمة تجعلك مطمئنًا فهي شيء أحاط الله به، مطمئن أنها ستأتيني لن تذهب إلى أي مكان لن يعرف أحد أن يأخذها، { مَّا يَفتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحمَة فَلَا مُمسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمسِك فَلَا مُرسِلَ لَهُۥ مِن بَعدِهِۦۚ }[فاطر: ٢] فإذا فتح الله لك لن يستطيع أحد أن يغلق ما فتح الله لك.

{قَد أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا} جاءت بالتأكيد، اطمئنوا فمكة ستفتح ستفتح قد أحاط الله بها، ودائمًا الوعود التي مثل هذه يأتي معها تذكير بالصفة مثل قوله {وَمَغَانِمَ كَثِيرَة يَأخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيما}، {وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا قَد أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا} فكيف أن هذه أشياء لا نقدر عليها ستُفتَح؟ فالله يقول لنا {وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيء قَدِيرا }، فليس بجهدكم، دائما هناك طمأنة وتذكير بصفات الله – سبحانه وتعالى–.

إذًا فالأقوال في قوله: {وَأُخرَىٰ لَم تَقدِرُوا عَلَيهَا} :

* أنها فتح مكة

* أو حنين

* أو فارس والروم

* وهناك قول رابع أنها الطائف؛ لأنها كانت صعبة جدًا على المسلمين وتأخر المسلمون في فتحها إلى آخر حياة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

قال تعالى {وَلَو قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا ٱلأَدبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّا وَلَا نَصِيرا} **قيل**: أن أهل الكفر لو كانوا أصروا على القتال في صلح الحديبية، ورفضوا الصلح لولوا الأدبار، فهذا أيضًا يعطي ثقة للمؤمنين بأنفسهم فالله يقول لهم لو كانوا قاتلوكم لانتصرتم عليهم.

لماذا؟

{سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَد خَلَت مِن قَبلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبدِيلا} وقف المفسرون في شرح ما هي السنة التي لا تتبدل ولا تتغير؟ لأن عدم فهم هذه السنة أحيانًا يؤدي إلى سوء ظن بالله، -وتم التحدث عن هذا المعنى في آخر سورة فاطر الدرس السادس لمن أراد الاستزادة-، تكلمنا عن سنن الله وكيف نتعامل معها.

- فمن سنة الله مثلًا أنه ينصر أولياءه المؤمنين، وهنا يطرح سؤال: كيف ينصر الله عباده المؤمنين وأحيانًا تكون هناك معركة والكفار ينتصرون؟ فهل نقول أن السنة تخلفت، والله يقول {وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبدِيلا} لن القاطعة، فكيف هذا؟

ففي هذا الموقف من الممكن أن تسيء الظن بالله، لكن لابد أن تعلم أن هناك سنة أخرى أن المؤمنين لابد أن يأخذوا بكل شروط النصر كي ينتصروا ولو عصوا الله لن ينتصروا، ولو تنافروا ولم يجتمعوا فلن ينتصروا، ولو لم يأخذوا بأسباب النصر مجتمعة فلن ينتصروا، **فالسنن تعمل مجتمعة، السنن متداخلة.**

فيجب فهم التعامل مع الله؛ لذا قال تعالى في آية أخرى {إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ}[هود: ٥٦] فالله لن يغير السنن، أنت آمن مع ربك في تعاملك معه، واسمه المؤمن —سبحانه-.

الفكرة أن نفهم السنن، فلو أنتم وصلتم بعد البيعة لمرحلة الصدق والإخلاص، ووصلتم لهذه المرحلة من الصدق والإخلاص والإيمان من اتباع للنبي وهذه البيعة وحرصكم على بعضكم لدرجة أن تبايعوا على الموت من أجل أخيكم ففي هذا الوقت ستنتصرون على أي أحد، لو وصلتم لهذه المرحلة فسنة الله في أهل الإيمان الذين وصلوا لهذه المرحلة أن ينتصروا على الكفار.

الإشكالية هنا أنه عندما تحدث معركة مثل غزوة أُحد ولا يحدث نصر، فهذا يعني أن هناك شيئًا تخلَّف، لذلك عندما قلتم: أنى هذا، أليس سنة الله أننا ننتصر؟

نعم ولكن هناك سنة أخرى {وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ}[الأنفال: ٤٦]، فالسنن تعمل مجتمعة.

فعندما تصلوا إلى هذه المرحلة من الإيمان لدرجة الاستسلام لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم- بأن يتبدل حالكم من معتمرين إلى بيعة للقتال إلى صلح الحديبية، فعندما تصلون إلى هذه المرحلة من الاستسلام لأمر النبي -صلى الله عليه وسلم-، وحرصكم على بعضكم أن تبايعوا على الموت لأجل أخيكم، ويعلم الله -عز وجل- ما في قلوبكم من الصدق والإخلاص، فسنة الله حين تصلون إلى هذه المرحلة أن تنتصروا.

وهكذا نفهم سنن الله في معاملة أهل الإيمان.

{وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا}

لذلك قال الكثير من المفسرين أن هذه الآية كما تنطبق على الحديبية وأن قريشًا لو كانوا أصروا على القتال لهزموا، كذلك أيضًا تستمر إلى يوم القيامة لأن الله قال: {سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا} {قَدۡ خَلَتۡ} أي أن سنة الله سنة ماضية، وهي سنة مستقبلية {وَلَن تَجِدَ} أي لن تجد في المستقبل لسنة الله تبديلًا ولا تغييرًا.

أريدك أن تتخيل المشهد، نحن عائدون من الحديبية لا نفهم ماذا حدث، فتأتي آيات بشريات؛ لذلك قال النبي -صلى الله عليه وسلم: (سورة الفتح كالبشرى)، كانت سورة الفتح أحب إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- من الدنيا وما فيها.

فأحيانًا في وقت الاستضعاف ووسط الأحداث الغامضة، يأتي الله لك بآية تنير لك الطريق، فهذه أفضل عندك من أموال الدنيا، فأنت تتمنى أن تعرف لماذا يحدث ما يحدث؟ وكيف يحدث فينا هذا؟ فإجابة سؤال: أنّى هذا؟ في وسط الأحداث الغامضة يكون عندك أفضل من الدنيا وما فيها؛ لذلك فَرِح الصحابة وفرح النبي -صلى الله عليه وسلم- من قبلهم بهذه السورة، ففيها بشريات وأمل وحكمة، حكمة لماذا تأخر فتح مكة كما سيأتي في الآيات.

فقال الله -عز وجل- {وَهُوَ} أي هو وحده -سبحانه وتعالى- الذي فعل ذلك، {وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيدِيَهُم عَنكُم وَأَيدِيَكُم عَنهُم بِبَطنِ مَكَّةَ مِن بَعدِ أَن أَظفَرَكُم عَلَيهِمۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرًا}

هذه الآية فيها أقوال كثيرة في سبب نزولها والمناوشات التي حدثت فأتت قدرة الله فكفت أيدي المشركين عن المؤمنين وكفت أيدي المؤمنين عن المشركين كي لا يحدث قتال.

وأشهر الأقوال في صحيح مسلم وغيره من الكتب: أن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهو ذاهب للحديبية قلَّ الماء وأتى إلى بئر ووضع يديه أو بصق فيها -وفي رواية أخرى في موضع آخر في غزوة تبوك أنه وضع سهمه في الماء- ففاضت البئر بالماء، فكانت هذه من البشريات على الطريق -كما قلنا في قوله تعالى: {وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلمُؤمِنِينَ}.

فدائمًا في الحدث الصعب تحدث بُشْرَيات تطمئنك.

ومما حدث من البشريات أو من توفيق الله أن أرسلت قريش ما يقرب من ثمانين رجلًا لقتال النبي -اختلفوا في العدد-، فأرسل إليهم النبي بعض الرجال وتم أسرهم جميعًا، ثم أطلق النبي سراحهم، وقيل استحياهم أي أبقاهم أسرى حتى يتم الأمر.

الشاهد أن النبي لم يقتلهم، فقريش كانوا يستفزون الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فقال (دعوهم يكن لهم بدء الفجور وثناه)[١٠] أى يترك قريشًا هي من تبدأ المناوشة أو الفجور، طالما أن النبي والصحابة جاءوا لتعظيم الشعائر.

١٠] -عن سلمة بن الأكوع [:قَدِمْنَا الحُدَيْبِيَةَ مع رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَنَحْنُ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مِئَةً، وَعَلَيْهَا خَمْسُونَ شَاةً لا تُرْوِيهَا، قالَ: فَقَعَدَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ علَى جَبَا الرَّكِيَّةِ، فَإِمَّا دَعَا، وإِمَّا بَصَقَ فِيهَا، قالَ: فَجَاشَتْ، فَسَقَيْنَا وَاسْتَقَيْنَا، قالَ: ثُمَّ إنَّ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ دَعَانَا لِلْبَيْعَةِ في أَصْلِ الشَّجَرَةِ، قالَ: فَبَايَعْتُهُ أَوَّلَ النَّاسِ، ثُمَّ بَايَعَ، وَبَايَعَ، حتَّى إذَا كانَ في وَسَطٍ مِنَ النَّاسِ، قالَ: بَايِعْ يا سَلَمَةُ قالَ: قُلْتُ: قدْ بَايَعْتُكَ يا رَسولَ اللهِ، في أَوَّلِ النَّاسِ، قالَ: وَأَيْضًا، قالَ: وَرَآنِي رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ عَزِلًا، يَعْنِي ليسَ معهُ سِلَاحٌ، قالَ: فأعْطَانِي رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ حَجَفَةً، أَوْ دَرَقَةً، ثُمَّ بَايَعَ، حتَّى إذَا كانَ في آخِرِ النَّاسِ، قالَ: أَلَا تُبَايِعُنِي يا سَلَمَةُ؟ قالَ: قُلْتُ: قدْ بَايَعْتُكَ يا رَسولَ اللهِ، في أَوَّلِ النَّاسِ، وفي أَوْسَطِ النَّاسِ، قالَ: وَأَيْضًا، قالَ: فَبَايَعْتُهُ الثَّالِثَةَ، ثُمَّ قالَ لِي: يا سَلَمَةُ، أَيْنَ حَجَفَتُكَ، أَوْ دَرَقَتُكَ، الَّتِي أَعْطَيْتُكَ؟ قالَ: قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، لَقِيَنِي عَمِّي عَامِرٌ عَزِلًا، فأعْطَيْتُهُ إيَّاهَا، قالَ: فَضَحِكَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وقالَ: إنَّكَ كَالَّذِي قالَ الأَوَّلُ: اللَّهُمَّ أَبْغِنِي حَبِيبًا هو أَحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسِي، ثُمَّ إنَّ المُشْرِكِينَ رَاسَلُونَا الصُّلْحَ حتَّى مَشَى بَعْضُنَا في بَعْضٍ، وَاصْطَلَحْنَا، قالَ: وَكُنْتُ تَبِيعًا لِطَلْحَةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ أَسْقِي فَرَسَهُ، وَأَحُسُّهُ، وَأَخْدِمُهُ، وَآكُلُ مِن طَعَامِهِ، وَتَرَكْتُ أَهْلِي وَمَالِي مُهَاجِرًا إلى اللهِ وَرَسولِهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قالَ: فَلَمَّا اصْطَلَحْنَا نَحْنُ وَأَهْلُ مَكَّةَ، وَاخْتَلَطَ بَعْضُنَا ببَعْضٍ، أَتَيْتُ شَجَرَةً فَكَسَحْتُ شَوْكَهَا فَاضْطَجَعْتُ في أَصْلِهَا، قالَ: فأتَانِي أَرْبَعَةٌ مِنَ المُشْرِكِينَ مِن أَهْلِ مَكَّةَ، فَجَعَلُوا يَقَعُونَ في رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فأبْغَضْتُهُمْ، فَتَحَوَّلْتُ إلى شَجَرَةٍ أُخْرَى، وَعَلَّقُوا سِلَاحَهُمْ وَاضْطَجَعُوا، فَبَيْنَمَا هُمْ كَذلكَ إذْ نَادَى مُنَادٍ مِن أَسْفَلِ الوَادِي، يا لَلْمُهَاجِرِينَ، قُتِلَ ابنُ زُنَيْمٍ، قالَ: فَاخْتَرَطْتُ سَيْفِي، ثُمَّ شَدَدْتُ علَى أُولَئِكَ الأَرْبَعَةِ وَهُمْ رُقُودٌ، فأخَذْتُ سِلَاحَهُمْ، فَجَعَلْتُهُ ضِغْثًا في يَدِي، قالَ: ثُمَّ قُلْتُ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ، لا يَرْفَعُ أَحَدٌ مِنكُم رَأْسَهُ إلَّا ضَرَبْتُ الذي فيه عَيْنَاهُ، قالَ: ثُمَّ جِئْتُ بهِمْ أَسُوقُهُمْ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قالَ: وَجَاءَ عَمِّي عَامِرٌ برَجُلٍ مِنَ العَبَلَاتِ، يُقَالُ له: مِكْرَزٌ يَقُودُهُ إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ علَى فَرَسٍ، مُجَفَّفٍ في سَبْعِينَ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَنَظَرَ إلَيْهِم رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَقالَ: دَعُوهُمْ، يَكُنْ لهمْ بَدْءُ الفُجُورِ، وَثِنَاهُ، فَعَفَا عَنْهُمْ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَهو الذي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عليهم} الآيَةَ كُلَّهَا. قالَ: ثُمَّ خَرَجْنَا رَاجِعِينَ إلى المَدِينَةِ، فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا بيْنَنَا وبيْنَ بَنِي لَحْيَانَ جَبَلٌ، وَهُمُ المُشْرِكُونَ، فَاسْتَغْفَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لِمَن رَقِيَ هذا الجَبَلَ اللَّيْلَةَ، كَأَنَّهُ طَلِيعَةٌ للنبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ، قالَ سَلَمَةُ: فَرَقِيتُ تِلكَ اللَّيْلَةَ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَبَعَثَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بظَهْرِهِ مع رَبَاحٍ، غُلَامِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وَأَنَا معهُ، وَخَرَجْتُ معهُ بفَرَسِ طَلْحَةَ، أُنَدِّيهِ مع الظَّهْرِ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إذَا عبدُ الرَّحْمَنِ الفَزَارِيُّ قدْ أَغَارَ علَى ظَهْرِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَاسْتَاقَهُ أَجْمَع، وَقَتَلَ رَاعِيَهُ، قالَ: فَقُلْتُ: يا رَبَاحُ، خُذْ هذا الفَرَسَ فأبْلِغْهُ طَلْحَةَ بنَ عُبَيْدِ اللهِ، وَأَخْبِرْ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ أنَّ المُشْرِكِينَ قدْ أَغَارُوا علَى سَرْحِهِ، قالَ: ثُمَّ قُمْتُ علَى أَكَمَةٍ، فَاسْتَقْبَلْتُ المَدِينَةَ، فَنَادَيْتُ ثَلَاثًا: يا صَبَاحَاهْ، ثُمَّ خَرَجْتُ في آثَارِ القَوْمِ أَرْمِيهِمْ بالنَّبْلِ وَأَرْتَجِزُ، أَقُولُ: أَنَا ابنُ الأَكْوَعِ... وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ فَأَلْحَقُ رَجُلًا منهمْ فأصُكُّ سَهْمًا في رَحْلِهِ، حتَّى خَلَصَ نَصْلُ السَّهْمِ إلى كَتِفِهِ، قالَ: قُلْتُ: خُذْهَا. وَأَنَا ابنُ الأَكْوَعِ... وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ قالَ: فَوَاللَّهِ، ما زِلْتُ أَرْمِيهِمْ وَأَعْقِرُ بهِمْ، فَإِذَا رَجَعَ إلَيَّ فَارِسٌ أَتَيْتُ شَجَرَةً، فَجَلَسْتُ في أَصْلِهَا، ثُمَّ رَمَيْتُهُ فَعَقَرْتُ به، حتَّى إذَا تَضَايَقَ الجَبَلُ، فَدَخَلُوا في تَضَايِيقِهِ، عَلَوْتُ الجَبَلَ فَجَعَلْتُ أُرَدِّيهِمْ بالحِجَارَةِ، قالَ: فَما زِلْتُ كَذلكَ أَتْبَعُهُمْ حتَّى ما خَلَقَ اللَّهُ مِن بَعِيرٍ مِن ظَهْرِ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ إلَّا خَلَّفْتُهُ وَرَاءَ ظَهْرِي، وَخَلَّوْا بَيْنِي وبيْنَهُ، ثُمَّ اتَّبَعْتُهُمْ أَرْمِيهِمْ حتَّى أَلْقَوْا أَكْثَرَ مِن ثَلَاثِينَ بُرْدَةً، وَثَلَاثِينَ رُمْحًا، يَسْتَخِفُّونَ وَلَا يَطْرَحُونَ شيئًا إلَّا جَعَلْتُ عليه آرَامًا مِنَ الحِجَارَةِ يَعْرِفُهَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ، حتَّى أَتَوْا مُتَضَايِقًا مِن ثَنِيَّةٍ، فَإِذَا هُمْ قدْ أَتَاهُمْ فُلَانُ بنُ بَدْرٍ الفَزَارِيُّ، فَجَلَسُوا يَتَضَحَّوْنَ، يَعْنِي يَتَغَدَّوْنَ، وَجَلَسْتُ علَى رَأْسِ قَرْنٍ، قالَ الفَزَارِيُّ: ما هذا الذي أَرَى؟ قالوا: لَقِينَا مِن هذا البَرْحَ، وَاللَّهِ، ما فَارَقَنَا مُنْذُ غَلَسٍ يَرْمِينَا حتَّى انْتَزَعَ كُلَّ شيءٍ في أَيْدِينَا، قالَ: فَلْيَقُمْ إلَيْهِ نَفَرٌ مِنكُم أَرْبَعَةٌ، قالَ: فَصَعِدَ إلَيَّ منهمْ أَرْبَعَةٌ في الجَبَلِ، قالَ: فَلَمَّا أَمْكَنُونِي مِنَ الكَلَامِ، قالَ: قُلْتُ: هلْ تَعْرِفُونِي؟ قالوا: لَا، وَمَن أَنْتَ؟ قالَ: قُلْتُ: أَنَا سَلَمَةُ بنُ الأَكْوَعِ، وَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، لا أَطْلُبُ رَجُلًا مِنكُم إلَّا أَدْرَكْتُهُ، وَلَا يَطْلُبُنِي رَجُلٌ مِنكُم فيُدْرِكَنِي، قالَ أَحَدُهُمْ: أَنَا أَظُنُّ، قالَ: فَرَجَعُوا، فَما بَرِحْتُ مَكَانِي حتَّى رَأَيْتُ فَوَارِسَ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يَتَخَلَّلُونَ الشَّجَرَ، قالَ: فَإِذَا أَوَّلُهُمُ الأَخْرَمُ الأَسَدِيُّ، علَى إثْرِهِ أَبُو قَتَادَةَ الأَنْصَارِيُّ، وعلَى إثْرِهِ المِقْدَادُ بنُ الأَسْوَدِ الكِنْدِيُّ، قالَ: فأخَذْتُ بعِنَانِ الأَخْرَمِ، قالَ: فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، قُلْتُ: يا أَخْرَمُ، احْذَرْهُمْ لا يَقْتَطِعُوكَ حتَّى يَلْحَقَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ، قالَ: يا سَلَمَةُ، إنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ باللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ، وَتَعْلَمُ أنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، فلا تَحُلْ بَيْنِي وبيْنَ الشَّهَادَةِ، قالَ:

وبالرغم أنهم كانوا يستفزون النبي، ويبعثون بمن يقول كلامًا يسيء للنبي -صلى الله عليه وسلم-، ويبعثون بمن يقاتله، كان النبي -صلى الله عليه وسلم- مستمرًا في هدف العمرة، إلى أن أُشيع مقتل عثمان -رضي الله عنه-.

فَخَلَّيْتُهُ، فَالْتَقَى هو وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، قالَ: فَعَقَرَ بعَبْدِ الرَّحْمَنِ فَرَسَهُ، وَطَعَنَهُ عبدُ الرَّحْمَنِ فَقَتَلَهُ، وَتَحَوَّلَ على فَرَسِهِ، وَلَحِقَ أَبُو قَتَادَةَ فَارِسُ رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ بعَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَطَعَنَهُ فَقَتَلَهُ، فَوَالَّذِي كَرَّمَ وَجْهَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، لَتَبِعْتُهُمْ أَعْدُو على رِجْلَيَّ حتَّى ما أَرَى وَرَائِي مِن أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، وَلَا غُبَارِهِمْ شيئًا حتَّى يَعْدِلُوا قَبْلَ غُرُوبِ الشَّمْسِ إلى شِعْبٍ فيه مَاءٌ يُقَالُ له: ذُو قَرَدٍ لِيَشْرَبُوا منه، وَهُمْ عِطَاشٌ، قالَ: فَنَظَرُوا إلَيَّ أَعْدُو وَرَاءَهُمْ، فَخَلَّيْتُهُمْ عنْه، يَعْنِي أَجْلَيْتُهُمْ عنْه، فَما ذَاقُوا منه قَطْرَةً، قالَ: وَيَخْرُجُونَ فَيَشْتَدُّونَ في ثَنِيَّةٍ، قالَ: فأَعْدُو فأَلْحَقُ رَجُلًا منهمْ، فأَضْكُّهُ بسَهْمٍ في نُغْضِ كَتِفِهِ، قالَ: قُلْتُ: خُذْهَا وَأَنَا ابنُ الأَكْوَعِ وَالْيَوْمُ يَوْمُ الرُّضَّعِ قالَ: يا ثَكِلَتْهُ أُمُّهُ، أَكْوَعُهُ بُكْرَةً؟ قالَ: قُلْتُ: نَعَمْ يا عَدُوَّ نَفْسِهِ، أَكْوَعُكَ بُكْرَةً، قالَ: وَأَرْدَوْا فَرَسَيْنِ على ثَنِيَّةٍ، قالَ: فَجِئْتُ بهما أَسُوقُهُما إلى رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قالَ: وَلَحِقَنِي عَامِرٌ بسَطِيحَةٍ فيها مَذْقَةٌ مِن لَبَنٍ، وَسَطِيحَةٍ فيها مَاءٌ، فَتَوَضَّأْتُ وَشَرِبْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَهو على المَاءِ الذي حَلَّأْتُهُمْ عنْه، فَإِذَا رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قدْ أَخَذَ تِلْكَ الإبِلَ وَكُلَّ شيءٍ اسْتَنْقَذْتُهُ مِنَ المُشْرِكِينَ، وَكُلَّ رُمْحٍ وَبُرْدَةٍ، وإذَا بلَالٌ نَحَرَ نَاقَةً مِنَ الإبِلِ الذي اسْتَنْقَذْتُ مِنَ القَوْمِ، وإذَا هو يَشْوِي لِرَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ مِن كَبِدِهَا وَسَنَامِهَا، قالَ: قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، خَلِّنِي فأَنْتَخِبَ مِنَ القَوْمِ مِئَةَ رَجُلٍ فأَتَّبِعَ القَوْمَ، فلا يَبْقَى منهمْ مُخْبِرٌ إلَّا قَتَلْتُهُ، قالَ: فَضَحِكَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ حتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ في ضَوْءِ النَّارِ، فَقالَ: يا سَلَمَةُ، أَتُرَاكَ كُنْتَ فَاعِلًا؟ قُلْتُ: نَعَمْ، وَالَّذِي أَكْرَمَكَ، فَقالَ: إنَّهُمُ الآنَ لَيُقْرَوْنَ في أَرْضِ غَطَفَانَ، قالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِن غَطَفَانَ، فَقالَ: نَحَرَ لهمْ فُلَانٌ جَزُورًا فَلَمَّا كَشَفُوا جِلْدَهَا رَأَوْا غُبَارًا، فَقالوا: أَتَاكُمُ القَوْمُ، فَخَرَجُوا هَارِبِينَ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: كانَ خَيْرَ فُرْسَانِنَا اليومَ أَبُو قَتَادَةَ، وَخَيْرَ رَجَّالَتِنَا سَلَمَةُ، قالَ: ثُمَّ أَعْطَانِي رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ سَهْمَيْنِ سَهْمَ الفَارِسِ، وَسَهْمَ الرَّاجِلِ، فَجَمَعَهُما لي جَمِيعًا، ثُمَّ أَرْدَفَنِي رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَرَاءَهُ على العَضْبَاءِ رَاجِعِينَ إلى المَدِينَةِ، قالَ: فَبَيْنَا نَحْنُ نَسِيرُ، قالَ: وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ لا يُسْبَقُ شَدًّا، قالَ: فَجَعَلَ يقولُ: أَلَا مُسَابِقٌ إلى المَدِينَةِ؟ هلْ مِن مُسَابِقٍ؟ فَجَعَلَ يُعِيدُ ذلكَ قالَ: فَلَمَّا سَمِعْتُ كَلَامَهُ، قُلْتُ: أَما تُكْرِمُ كَرِيمًا، وَلَا تَهَابُ شَرِيفًا، قالَ: لَا، إلَّا أَنْ يَكونَ رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قالَ: قُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، بأَبِي وَأُمِّي، ذَرْنِي فَلِأُسَابِقَ الرَّجُلَ، قالَ: إنْ شِئْتَ، قالَ: قُلْتُ: اذْهَبْ إلَيْكَ وَثَنَيْتُ رِجْلَيَّ، فَطَفَرْتُ فَعَدَوْتُ، قالَ: فَرَبَطْتُ عليه شَرَفًا، أَوْ شَرَفَيْنِ، أَسْتَبْقِي نَفَسِي، ثُمَّ عَدَوْتُ في إثْرِهِ، فَرَبَطْتُ عليه شَرَفًا، أَوْ شَرَفَيْنِ، ثُمَّ إنِّي رَفَعْتُ حتَّى أَلْحَقُهُ، قالَ: فأَضُكُّهُ بيْنَ كَتِفَيْهِ، قالَ: قُلْتُ: قدْ سُبِقْتَ وَاللَّهِ، قالَ: أَنَا أَظُنُّ، قالَ: فَسَبَقْتُهُ إلى المَدِينَةِ، قالَ: فَوَاللَّهِ، ما لَبِثْنَا إلَّا ثَلَاثَ لَيَالٍ حتَّى خَرَجْنَا إلى خَيْبَرَ مع رَسولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، قالَ: فَجَعَلَ عَمِّي عَامِرٌ يَرْتَجِزُ بالقَوْمِ. تَاللَّهِ لَوْلَا اللَّهُ ما اهْتَدَيْنَا... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا وَنَحْنُ عن فَضْلِكَ ما اسْتَغْنَيْنَا... فَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إنْ لَاقَيْنَا وَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا. فَقالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: مَن هذا؟ قالَ: أَنَا عَامِرٌ، قالَ: غَفَرَ لكَ رَبُّكَ، قالَ: وَما اسْتَغْفَرَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لِإِنْسَانٍ يَخُصُّهُ إلَّا اسْتُشْهِدَ، قالَ: فَنَادَى عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ وَهو على جَمَلٍ له: يا نَبِيَّ اللهِ، لَوْلَا ما مَتَّعْتَنَا بعَامِرٍ، قالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا خَيْبَرَ، قالَ: خَرَجَ مَلِكُهُمْ مَرْحَبٌ يَخْطِرُ بسَيْفِهِ، ويقولُ: قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ... شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ. إذَا الحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ قالَ: وَبَرَزَ له عَمِّي عَامِرٌ، فَقالَ: قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي عَامِرُ... شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُغَامِرُ قالَ: فَاخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ، فَوَقَعَ سَيْفُ مَرْحَبٍ في تُرْسِ عَامِرٍ، وَذَهَبَ عَامِرٌ يَسْفُلُ له، فَرَجَعَ سَيْفُهُ على نَفْسِهِ، فَقَطَعَ أَكْحَلَهُ، فَكَانَتْ فِيهَا نَفْسُهُ. قالَ سَلَمَةُ: فَخَرَجْتُ، فَإِذَا نَفَرٌ مِن أَصْحَابِ النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ يقولونَ: بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ، قَتَلَ نَفْسَهُ، قالَ: فأَتَيْتُ النبيَّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ وَأَنَا أَبْكِي، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، بَطَلَ عَمَلُ عَامِرٍ؟ قالَ رَسولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ: مَن قالَ ذلكَ؟ قالَ: قُلْتُ: نَاسٌ مِن أَصْحَابِكَ، قالَ: كَذَبَ مَن قالَ ذلكَ، بَلْ له أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي إلى عَلِيٍّ وهو أَرْمَدُ، فَقالَ: لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسولَهُ، أَوْ يُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسولُهُ، قالَ: فأَتَيْتُ عَلِيًّا، فَجِئْتُ به أَقُودُهُ وهو أَرْمَدُ، حتَّى أَتَيْتُ به رَسولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ، فَبَسَقَ في عَيْنَيْهِ فَبَرَأَ وَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، وَخَرَجَ مَرْحَبٌ، فَقالَ: قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ... شَاكِي السِّلَاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ. إذَا الحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ فَقالَ عَلِيٌّ: أَنَا الذي سَمَّتْنِي أُمِّي حَيْدَرَهْ... كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيهِ المَنْظَرَهْ. أُوفِيهِمُ بالصَّاعِ كَيْلَ السَّنْدَرَهْ قالَ: فَضَرَبَ رَأْسَ مَرْحَبٍ فَقَتَلَهُ، ثُمَّ كانَ الفَتْحُ على يَدَيْهِ.

[صحيح] •مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١٨٠٧

هناك رواية هنا مشهورة وذكرها الإمام الطبري أن النبي أرسل خالد بن الوليد في جيش، وجيش المشركين كان بقيادة عكرمة بن أبي جهل، فاستطاع خالد أن يرده إلى مكة ثلاث مرات، كلما خرج عكرمة، أعاده خالد، ولكن رد الإمام ابن كثير هذه الرواية، وقال أن خالدًا لم يكن قد أسلم بعد في الصلح إلا أن يكون هذا الحدث تأخر، ولكن هو رد هذه الرواية.

قال جمهور المفسرين أن معنى الآية أن المشركين كانوا يفتعلون المناوشات أثناء ذهابكم إلى الحديبية – {بِبَطنِ مَكَّةَ} أي بجانب مكة– حتى لا تتم العمرة ولا يتم الصلح، لكن الله قدر الصلح.

فالله كف أيدي المؤمنين حتى لا يتخذوا الجيش ذريعة فيقاتلوا، وألهمهم وألهم النبي أن يقوموا بالصلح فقط، فكل هذه الترتيبات هي أقدار عجيبة من الله تعالى حتى يتم الصلح، من أول ما بركت الناقة وقالوا: "خلأت القصواء" فقال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق)[١١] وكل هذا ترتيبات قدرية عجيبة وتربية لأهل الإيمان لحكمة عجيبة سيذكرها الله في الآية التالية.

---

[١١]]عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم [:خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ زَمَنَ الحُدَيْبِيَةِ حتَّى إذَا كَانُوا ببَعْضِ الطَّرِيقِ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ بالغَمِيمِ في خَيْلٍ لِقُرَيْشٍ طَلِيعَةٌ، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ فَوَاللَّهِ ما شَعَرَ بهِمْ خَالِدٌ حتَّى إذَا هُمْ بقَتَرَةِ الجَيْشِ، فَانْطَلَقَ يَرْكُضُ نَذِيرًا لِقُرَيْشٍ، وسَارَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى إذَا كانَ بالثَّنِيَّةِ الَّتي يُهْبَطُ عليهم منها بَرَكَتْ به رَاحِلَتُهُ، فَقالَ النَّاسُ: حَلْ حَلْ فألَحَّتْ، فَقالوا :خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، خَلَأَتِالقَصْوَاءُ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ :ما خَلَأَتِ القَصْوَاءُ، وما ذَاكَ لَهَا بخُلُقٍ، ولَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الفِيلِ، ثُمَّ قالَ :والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا، ثُمَّ زَجَرَهَا فَوَثَبَتْ، قالَ: فَعَدَلَ عَنْهُمْ حتَّى نَزَلَ بأَقْصَى الحُدَيْبِيَةِ علَى ثَمَدٍ قَلِيلِ المَاءِ، يَتَبَرَّضُهُ النَّاسُ تَبَرُّضًا، فَلَمْ يُلْبِثْهُ النَّاسُ حتَّى نَزَحُوهُ وشُكِيَ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ العَطَشُ، فَانْتَزَعَ سَهْمًا مِن كِنَانَتِهِ، ثُمَّ أمَرَهُمْ أنْ يَجْعَلُوهُ فِيهِ، فَوَاللَّهِ ما زَالَ يَجِيشُ لهمْ بالرِّيِّ حتَّى صَدَرُوا عنْه، فَبَيْنَا هُمْ كَذلكَ إذْ جَاءَ بُدَيْلُ بنُ ورْقَاءَ الخُزَاعِيُّ في نَفَرٍ مِن قَوْمِهِ مِن خُزَاعَةَ، وكَانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مِن أهْلِ تِهَامَةَ، فَقالَ: إنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بنَ لُؤَيٍّ، وعَامِرَ بنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، ومعهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وهُمْ مُقَاتِلُوكَ وصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أحَدٍ، ولَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وإنَّ قُرَيْشًا قدْ نَهِكَتْهُمُ الحَرْبُ، وأَضَرَّتْ بهِمْ، فإنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، ويُخَلُّوا بَيْنِي وبَيْنَ النَّاسِ، فإنْ أظْهَرَ: فإنْ شَاؤُوا أنْ يَدْخُلُوا فِيما دَخَلَ فيه النَّاسُ فَعَلُوا، وإلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وإنْ هُمْ أبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ علَى أمْرِي هذا حتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، ولَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أمْرَهُ، فَقالَ بُدَيْلٌ: سَأُبَلِّغُهُمْ ما تَقُولُ، قالَ: فَانْطَلَقَ حتَّى أتَى قُرَيْشًا، قالَ :إنَّا قدْ جِئْنَاكُمْ مِن هذا الرَّجُلِ وسَمِعْنَاهُ يقولُ قَوْلًا، فإنْ شِئْتُمْ أنْ نَعْرِضَهُ عليْكُمْ فَعَلْنَا، فَقالَ سُفَهَاؤُهُمْ: لا حَاجَةَ لَنَا أنْ تُخْبِرَنَا عنْه بشيءٍ، وقالَ ذَوُو الرَّأْيِ منهمْ: هَاتِ ما سَمِعْتَهُ يقولُ، قالَ: سَمِعْتُهُ يقولُ كَذَا وكَذَا، فَحَدَّثَهُمْ بما قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَامَ عُرْوَةُ بنُ مَسْعُودٍ فَقالَ: أيْ قَوْمِ، ألَسْتُمْ بالوَالِدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: أوَلَسْتُ بالوَلَدِ؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فَهلْ تَتَّهِمُونِي؟ قالوا: لَا، قالَ: ألَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أنِّي اسْتَنْفَرْتُ أهْلَ عُكَاظَ، فَلَمَّا بَلَّحُوا عَلَيَّ جِئْتُكُمْ بأَهْلِي ووَلَدِي ومَن أطَاعَنِي؟ قالوا: بَلَى، قالَ: فإنَّ هذا قدْ عَرَضَ لَكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ، اقْبَلُوهَا ودَعُونِي آتِيهِ، قالوا: ائْتِهِ، فأتَاهُ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نَحْوًا مِن قَوْلِهِ لِبُدَيْلٍ، فَقالَ عُرْوَةُ عِنْدَ ذلكَ: أيْ مُحَمَّدُ أرَأَيْتَ إنِ اسْتَأْصَلْتَ أمْرَ قَوْمِكَ، هلْ سَمِعْتَ بأَحَدٍ مِنَ العَرَبِ اجْتَاحَ أهْلَهُ قَبْلَكَ، وإنْ تَكُنِ الأُخْرَى، فإنِّي واللَّهِ لَأَرَى وُجُوهًا، وإنِّي لَأَرَى أوْشَابًا مِنَ النَّاسِ خَلِيقًا أنْ يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ، فَقالَ له أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: امْصُصْ ببَظْرِ اللَّاتِ، أنَحْنُ نَفِرُّ عنْه ونَدَعُهُ؟ فَقالَ: مَن ذَا؟ قالوا: أبو بَكْرٍ، قالَ: أما والذي نَفْسِي بيَدِهِ، لَوْلَا يَدٌ كَانَتْ لكَ عِنْدِي لَمْ أجْزِكَ بهَا لَأَجَبْتُكَ، قالَ: وجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَكُلَّما تَكَلَّمَ أخَذَ بلِحْيَتِهِ، والمُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ قَائِمٌ علَى رَأْسِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، ومعهُ السَّيْفُ وعليه المِغْفَرُ، فَكُلَّما أهْوَى عُرْوَةُ بيَدِهِ إلى لِحْيَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ضَرَبَ يَدَهُ بنَعْلِ السَّيْفِ، وقالَ له: أخِّرْ يَدَكَ عن لِحْيَةِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَرَفَعَ عُرْوَةُ رَأْسَهُ، فَقالَ: مَن هذا؟ قالوا: المُغِيرَةُ بنُ شُعْبَةَ، فَقالَ: أيْ غُدَرُ، ألَسْتُ أسْعَى في غَدْرَتِكَ؟ وكَانَ المُغِيرَةُ صَحِبَ قَوْمًا في الجَاهِلِيَّةِ فَقَتَلَهُمْ، وأخَذَ أمْوَالَهُمْ، ثُمَّ جَاءَ فأسْلَمَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا الإسْلَامَ فأقْبَلُ، وأمَّا المَالَ فَلَسْتُ منه في شيءٍ، ثُمَّ إنَّ عُرْوَةَ جَعَلَ يَرْمُقُ أصْحَابَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بعَيْنَيْهِ، قالَ: فَوَاللَّهِ ما تَنَخَّمَ رَسولُ اللَّهِ

صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهم، فَدَلَكَ بها وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، فَرَجَعَ عُرْوَةُ إلى أصْحَابِهِ، فَقالَ: أيْ قَوْمِ، واللَّهِ لَقَدْ وفَدْتُ علَى المُلُوكِ، ووَفَدْتُ علَى قَيْصَرَ، وكِسْرَى، والنَّجَاشِيِّ، واللَّهِ إنْ رَأَيْتُ مَلِكًا قَطُّ يُعَظِّمُهُ أصْحَابُهُ ما يُعَظِّمُ أصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مُحَمَّدًا، واللَّهِ إنْ تَنَخَّمَ نُخَامَةً إلَّا وقَعَتْ في كَفِّ رَجُلٍ منهم، فَدَلَكَ بها وجْهَهُ وجِلْدَهُ، وإذَا أمَرَهُمُ ابْتَدَرُوا أمْرَهُ، وإذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ علَى وضُوئِهِ، وإذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وما يُحِدُّونَ إلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا له، وإنَّه قدْ عَرَضَ عليْكُمْ خُطَّةَ رُشْدٍ فَاقْبَلُوهَا، فَقالَ رَجُلٌ مِن بَنِي كِنَانَةَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقالوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أشْرَفَ علَى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأَصْحَابِهِ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا فُلَانٌ، وهو مِن قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ البُدْنَ، فَابْعَثُوهَا له فَبُعِثَتْ له، واسْتَقْبَلَهُ النَّاسُ يُلَبُّونَ، فَلَمَّا رَأَى ذلكَ قالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، ما يَنْبَغِي لِهَؤُلَاءِ أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَلَمَّا رَجَعَ إلى أصْحَابِهِ، قالَ: رَأَيْتُ البُدْنَ قدْ قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فَما أرَى أنْ يُصَدُّوا عَنِ البَيْتِ، فَقَامَ رَجُلٌ منهمْ يُقَالُ له مِكْرَزُ بنُ حَفْصٍ، فَقالَ: دَعُونِي آتِيهِ، فَقالوا: ائْتِهِ، فَلَمَّا أشْرَفَ عليهم، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: هذا مِكْرَزٌ، وهو رَجُلٌ فَاجِرٌ، فَجَعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَبيْنَما هو يُكَلِّمُهُ إذْ جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، قالَ مَعْمَرٌ: فأخْبَرَنِي أيُّوبُ، عن عِكْرِمَةَ أنَّه لَمَّا جَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: لقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِن أمْرِكُمْ قالَ مَعْمَرٌ: قالَ الزُّهْرِيُّ في حَدِيثِهِ: فَجَاءَ سُهَيْلُ بنُ عَمْرٍو فَقالَ: هَاتِ اكْتُبْ بيْنَنَا وبيْنَكُمْ كِتَابًا فَدَعَا النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ الكَاتِبَ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، قالَ سُهَيْلٌ: أمَّا الرَّحْمَنُ، فَوَاللَّهِ ما أدْرِي ما هو ولَكِنِ اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ كما كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقالَ المُسْلِمُونَ: واللَّهِ لا نَكْتُبُهَا إلَّا بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ ثُمَّ قالَ: هذا ما قَاضَى عليه مُحَمَّدٌ رَسولُ اللَّهِ، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّهِ لو كُنَّا نَعْلَمُ أنَّكَ رَسولُ اللَّهِ ما صَدَدْنَاكَ عَنِ البَيْتِ، ولَا قَاتَلْنَاكَ، ولَكِنِ اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: واللَّهِ إنِّي لَرَسولُ اللَّهِ، وإنْ كَذَّبْتُمُونِي، اكْتُبْ مُحَمَّدُ بنُ عبدِ اللَّهِ - قالَ الزُّهْرِيُّ: وذلكَ لِقَوْلِهِ: لا يَسْأَلُونِي خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فِيهَا حُرُمَاتِ اللَّهِ إلَّا أعْطَيْتُهُمْ إيَّاهَا - فَقالَ له النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: علَى أنْ تُخَلُّوا بيْنَنَا وبيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ به، فَقالَ سُهَيْلٌ: واللَّهِ لا تَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا أُخِذْنَا ضُغْطَةً، ولَكِنْ ذلكَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ، فَكَتَبَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: وعلَى أنَّه لا يَأْتِيكَ مِنَّا رَجُلٌ وإنْ كانَ علَى دِينِكَ إلَّا رَدَدْتَهُ إلَيْنَا، قالَ المُسْلِمُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، كيْفَ يُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جَاءَ مُسْلِمًا؟ فَبيْنَما هُمْ كَذلكَ إذْ دَخَلَ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو يَرْسُفُ في قُيُودِهِ، وقدْ خَرَجَ مِن أسْفَلِ مَكَّةَ حتَّى رَمَى بنَفْسِهِ بيْنَ أظْهُرِ المُسْلِمِينَ، فَقالَ سُهَيْلٌ: هذا يا مُحَمَّدُ أوَّلُ أُقَاضِيكَ عليه أنْ تَرُدَّهُ إلَيَّ، فَقالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: إنَّا لَمْ نَقْضِ الكِتَابَ بَعْدُ، قالَ: فَوَاللَّهِ إذًا لَمْ أُصَالِحْكَ علَى شيءٍ أبَدًا، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: فأجِزْهُ لِي، قالَ: ما أنَا بمُجِيزِهِ لَكَ، قالَ: بَلَى فَافْعَلْ، قالَ: ما أنَا بفَاعِلٍ، قالَ مِكْرَزٌ: بَلْ قدْ أجَزْنَاهُ لَكَ، قالَ أبو جَنْدَلٍ: أيْ مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُرَدُّ إلى المُشْرِكِينَ وقدْ جِئْتُ مُسْلِمًا، ألَا تَرَوْنَ ما قدْ لَقِيتُ؟ وكانَ قدْ عُذِّبَ عَذَابًا شَدِيدًا في اللَّهِ، قالَ: فَقالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: فأتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَقُلْتُ: ألَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قالَ: بَلَى، قُلْتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ، وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ، قالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: إنِّي رَسولُ اللَّهِ، ولَسْتُ أعْصِيهِ، وهو نَاصِرِي، قُلْتُ: أوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ به؟ قالَ: بَلَى، فأخْبَرْتُكَ أنَّا نَأْتِيهِ العَامَ، قالَ: قُلْتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به، قالَ: فأتَيْتُ أبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يا أبَا بَكْرٍ أليسَ هذا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قالَ: بَلَى، قُلْتُ: ألَسْنَا علَى الحَقِّ وعَدُوُّنَا علَى البَاطِلِ؟ قالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ في دِينِنَا إذًا؟ قالَ: أيُّها الرَّجُلُ إنَّه لَرَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وليسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وهو نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إنَّه علَى الحَقِّ، قُلْتُ: أليسَ كانَ يُحَدِّثُنَا أنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ ونَطُوفُ بِهِ؟ قالَ: بَلَى، أفَأخْبَرَكَ أنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لَا، قالَ: فإنَّكَ آتِيهِ ومُطَّوِّفٌ به، - قالَ الزُّهْرِيُّ: قالَ عُمَرُ -: فَعَمِلْتُ لِذلكَ أعْمَالًا، قالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِن قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لأصْحَابِهِ: قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا، قالَ: فَوَاللَّهِ ما قَامَ منهمْ رَجُلٌ حتَّى قالَ ذلكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ منهمْ أحَدٌ دَخَلَ علَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا ما لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، أتُحِبُّ ذلكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لا تُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ كَلِمَةً، حتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أحَدًا منهمْ حتَّى فَعَلَ ذلكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، ودَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذلكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا، ثُمَّ جَاءَهُ نِسْوَةٌ مُؤْمِنَاتٌ فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا جَاءَكُمُ المُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ} [الممتحنة: ١٠] حتَّى بَلَغَ بِعِصَمِ الكَوَافِرِ فَطَلَّقَ عُمَرُ يَومَئِذٍ امْرَأَتَيْنِ، كَانَتَا له في الشِّرْكِ فَتَزَوَّجَ إحْدَاهُما مُعَاوِيَةُ بنُ أبِي سُفْيَانَ، والأُخْرَى صَفْوَانُ بنُ أُمَيَّةَ، ثُمَّ رَجَعَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى المَدِينَةِ، فَجَاءَهُ أبو بَصِيرٍ رَجُلٌ مِن قُرَيْشٍ وهو مُسْلِمٌ، فأرْسَلُوا في طَلَبِهِ رَجُلَيْنِ، فَقالوا: العَهْدَ الذي جَعَلْتَ لَنَا، فَدَفَعَهُ إلى الرَّجُلَيْنِ، فَخَرَجَا به حتَّى بَلَغَا ذَا الحُلَيْفَةِ، فَنَزَلُوا يَأْكُلُونَ مِن تَمْرٍ لهمْ، فَقالَ أبو بَصِيرٍ لأحَدِ الرَّجُلَيْنِ: واللَّهِ إنِّي لَأَرَى سَيْفَكَ هذا يا فُلَانُ جَيِّدًا، فَاسْتَلَّهُ الآخَرُ، فَقالَ: أجَلْ، واللَّهِ إنَّه لَجَيِّدٌ، لقَدْ جَرَّبْتُ به، ثُمَّ جَرَّبْتُ، فَقالَ أبو بَصِيرٍ: أرِنِي أنْظُرْ إلَيْهِ، فأمْكَنَهُ منه، فَضَرَبَهُ حتَّى بَرَدَ، وفَرَّ الآخَرُ حتَّى أتَى المَدِينَةَ، فَدَخَلَ المَسْجِدَ يَعْدُو، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ رَآهُ: لقَدْ رَأَى هذا ذُعْرًا فَلَمَّا انْتَهَى إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قالَ: قُتِلَ واللَّهِ صَاحِبِي وإنِّي لَمَقْتُولٌ، فَجَاءَ أبو بَصِيرٍ فَقالَ: يا نَبِيَّ اللَّهِ، قدْ واللَّهِ أوْفَى اللَّهُ ذِمَّتَكَ، قدْ رَدَدْتَنِي إلَيْهِم، ثُمَّ أنْجَانِي اللَّهُ منهمْ، قالَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: ويْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لو كانَ له أحَدٌ فَلَمَّا سَمِعَ ذلكَ عَرَفَ أنَّه سَيَرُدُّهُ إلَيْهِم، فَخَرَجَ حتَّى أتَى سِيفَ البَحْرِ قالَ: ويَنْفَلِتُ منهمْ أبو جَنْدَلِ بنُ سُهَيْلٍ، فَلَحِقَ بأبِي بَصِيرٍ، فَجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِن قُرَيْشٍ رَجُلٌ قدْ أسْلَمَ إلَّا لَحِقَ بأبِي بَصِيرٍ، حتَّى اجْتَمَعَتْ منهمْ عِصَابَةٌ، فَوَاللَّهِ ما يَسْمَعُونَ بعِيرٍ خَرَجَتْ لِقُرَيْشٍ إلى الشَّأْمِ إلَّا اعْتَرَضُوا لَهَا، فَقَتَلُوهُمْ وأَخَذُوا أمْوَالَهُمْ، فأرْسَلَتْ قُرَيْشٌ إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تُنَاشِدُهُ باللَّهِ والرَّحِمِ، لَمَّا أرْسَلَ، فَمَن أتَاهُ فَهو آمِنٌ، فأرْسَلَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلَيْهِم، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَهو الذي كَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عنْهُمْ ببَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أنْ

{مِن بَعدِ أَن أَظفَرَكُم عَلَيهِم}

بمعنى أنكم انتصرتم وقيدتموهم وأسرتموهم ومع ذلك لم تفعلوا معهم أي مشكلة، فكل هذا كان بترتيب من الله، {وكان الله بما تعملون بصيرا} فالله عليم وبصير بكل هذه الأحداث وكل هذه الأحداث كانت بترتيب الله.

هنا أود أن نجمّع الآيات التي بدأت بـ إنّا، والآيات التي بدأت بـ هو.

ثلاث آيات تقريبا بدأت بـ هو، وآيتان بدأتا بـ إنّا، أي هو وحده –سبحانه وتعالى– من فعل هذا.

{هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُم عَنِ ٱلمسجِدِ ٱلحَرَامِ وَٱلهَدىَ مَعكُوفًا أَن يَبلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَولَا رِجَال مُّؤمِنُونَ وَنِسَآء مُّؤمِنَٰت لَّم تَعلَمُوهُم أَن تَطَـُٔوهُم فَتُصِيبَكُم مِّنهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيرِ عِلم}

{هُمُ...}: أي يخبر الله –سبحانه وتعالى– أن هؤلاء الكفار فعلوا جرائم في حق المسلمين، ولكن الله أراد أن يؤجل القتال والفتح لحكمة منه سبحانه.

فهم كانوا يستحقون أن يُبادوا ولم يكتفوا بالكفر ولكنهم أضافوا للكفر الصد عن المسجد الحرام وعن طريق الله، والمعصية الأكبر والتي بدأ بها الله هي معصية الكفر، وكل المعاصي الأخرى مترتبة على الكفر.

{هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا} وضموا إلى كفرهم أنهم صدوكم عن المسجد الحرام {وَصَدُّوكُم عَنِ ٱلمسجِدِ ٱلحَرَامِ}.

فهؤلاء الكفار بالرغم من كفرهم كانوا لا يصدون كثيرًا من الناس عن المسجد الحرام، وهذا هو العجيب: فحتى في شريعة كفرهم كان الرجل يلقى قاتل أبيه في الحرم ولا يقتله، فكان الكفار مع بعضهم البعض لو قابلوا أشد الناس عداوة لهم في الحرم لا يخرجوهم ولا يقتلوهم، فكيف يكون لكم تشريع معين في الكفر ثم تطبقون هذا التشريع بانتقائية!

فالأمر كصنم العجوة، مثل الديموقراطية، يطبقونه وقتما شاءوا ويتجاهلونه وقتما شاءوا.

أَظْفَرَكُمْ عليهم} [الفتح: ٢٤] حتَّى بَلَغَ {الحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ} [الفتح: ٢٦] وكَانَتْ حَمِيَّتُهُمْ أنَّهُمْ لَمْ يُقِرُّوا أنَّه نَبِيُّ اللَّهِ، ولَمْ يُقِرُّوا بِبسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وحَالُوا بيْنَهُمْ وبيْنَ البَيْتِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٢٧٣١] • صحيح

فهم عندهم ديموقراطية في الحرم، أي أحد جاء للحرم يدخل؛ طالما لم يأت للقتال، وجاء معه الهَدي وقام بإشعار أن هذا هدي بأن علق فيه قلائد.

لكنهم لم يُدخلوا المؤمنين بالرغم أن معهم الهَدي، ليس لشيء سوى لأنهم مؤمنين، وهذه حمية الجاهلية، بالرغم من أن الكفار كانوا لا يصدون أحدًا عن المسجد! فتقول الآية بالرغم من أنكم لم تأتوا لقتال، وجئتم معكم الهَدي الذي يدل على أنكم جئتم لتعتمروا وليس للقتال، {وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا} أي مربوطًا لدرجة أن ظهره انحنى تَعَبًا، قاموا بمنع الهَدي أن يصل إلى محله وهو المكان الذي يُذبح فيه {أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ}.

واختلف الفقهاء في هذه الآية في معنى كلمة محله؛ حول من أحصر عن تأدية النسك أيرسل الهدي أما لا؟

فقال الإمام أبو حنيفة: من أُحصر يرسل أحدًا بالهدي ليُذبح في الحرم.

وقال الإمام الشافعي: يذبح في أي مكان طالما أُحصر.

والشاهد أنه يحل ذبحه؛ لأنك لا تذبح إلا بعد تأدية النسك.

{وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥ}

فهم كفروا، وصدوا عن المسجد الحرام، ولم يسمحوا لكم بالدخول بالرغم أن معكم الدليل أنكم لم تأتوا للقتال، فهؤلاء يستحقون الإبادة، **لكن الله لم يفعل ذلك، لماذا؟**

لحكمة يعلمها الله، ولو كانوا قاتلونا، لقتلناهم، فمن الممكن أن يتعجب أحد: فلو كنا قاتلناهم، كنا هزمناهم وانتصرنا، فلماذا لم نقاتلهم وهم كفار عباد أوثان وصدوا عن المسجد الحرام وكل هذا، فلماذا لم يبادوا؟!

وهنا تأتي حكمة الله التي يعرّفنا الله جزءًا منها، فحكم الله غير متناهية، وكل أفعال الله مكتنفة بين الرحمة والحكمة،

{وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ} فهذه **هي الحكمة الأولى.**

وقوله {لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ} **هي الحكمة الثانية.**

وكان متوقعًا أن تكون الحكمة الثانية هي التي تأتي أولًا. وتعني أن يكون فيهم أناس يسلمون، وهذا حدث بالفعل مثل أبو سفيان وخالد بن الوليد وعكرمة فهؤلاء كانوا من الذين صدوا وأسلموا بعدها.

{لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ}: أي يسلموا في المستقبل أو يكون من أصلابهم من سيؤمن؛ فحتى لو مات كافرًا، فابنه سوف يسلم.

والحكمة الأولى أن المستضعفين الذين لم يستطيعوا أن يهاجروا لعذر فهؤلاء قد اهتم بهم القرآن.

لأن الهجرة أمر عظيم وفاصل وجُعل محل الولاية كما جاء في آخر سورة الأنفال: {مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ}[الأنفال: ٧٢] فكانت الولاية على الهجرة، ومن قرر ألا يهاجر تقل الولاية في حقه.

بل إن المؤمن الذي لم يهاجر لعذر دنيوي وخرج معهم في بدر فهذا منافق وليس فيه خلاف، وقال تعالى في موضع أخر: {فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ}[النساء: ٨٨] وهذه الآية نزلت فيهم على أحد الأقوال، {والله أركسهم بما كسبوا}[النساء: ٨٨].

فالمسلمون –أو الذين يظهرون الإسلام– الذين لم يهاجروا وظلوا في مكة أقسام، والقرآن تعامل مع كل قسم على حدة؛ فعاتب قسم، وعذر قسم، وأعطى حلًا لقسم، وهذا الأمر يحتاج لبحث واستقصاء في القرآن، كيف تعامل القرآن معهم، لأن مجموعة من الناس لم يستطيعوا الهجرة، هناك من لم يهاجر لأجل تجارته، أو قبيلته، أو عائلته، أو لعذر معين مثل المستضعفين.

الله يقول أن هناك مؤمنين ظلوا محتفظين بالإيمان وظلوا يكتمون إيمانهم ست سنوات بعد هجرة النبي – صلى الله عليه وسلم– ولم يعلم أحد بإيمانهم والله يعذرهم، ولأجل هؤلاء يؤجل الفتح؛ فهؤلاء لهم مكانة عظيمة عند الله رغم أنه لا أحد يعرفهم.

فانظر كيف لا ينسى الله أي أحد حتى في وقت الاستضعاف، فهؤلاء قلة قليلة مؤمنة يؤجل لأجلهم الفتح، فهذا الترتيب من الممكن أن يرتبه الله للمؤمنين بسبب شخص واحد، وقد يكون بسبب فرد

واحد مسكين أخذ في الأسر لا يعلم أحد عنه شيئًا، فلا تحتقر أحدًا؛ لأنك لا تعلم بسبب من سيأتي الفتح.

لذا قال تعالى: {وَلَوْلَا رِجَال مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآء مُّؤْمِنَٰت لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ}

فكان من الممكن لو دخلتم مكة عنوة وبقتال أن تقتلوهم، و كلمة تطؤه: أي تدهسه بدون قصد، فكان من الممكن أن تقضوا عليهم بدون علم منكم بأنهم مؤمنون، فتطئوهم: أي تقتلوهم من حيث لا تشعرون. {فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْم} فمن حكم تأخير فتح مكة أننا لو قتلناهم، كنا سنظل في معرة.

{فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيْرِ عِلْم}من السببية، أي بسبب قتلهم.

كلمة معرة فيها أقوال كثيرة: منها الإثم، ومنها الدية أي كفارة قتل الخطأ، ومنها اللوم والملامة –وهو المعنى الأشهر–.

فالعر: هو الجرب الشديد الذي لا يترك الجلد، فالملامة إما يعيرهم الكفار أن المسلمين يقتلون بعضهم البعض، أو أنه سيظل طول عمره يلوم نفسه على ما فعله مع أخيه؛ فانظر إلى المشاعر التي بين المؤمنين، مثلما قلنا في آية: {فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِم} قال ابن عطية: أي من حبهم لإخوانهم في الدين، وهنا قتل المؤمن لأخيه المؤمن وهو لا يعلم سيظل –إذا حدث– يُحدث في صدره ألما نفسيًا سيظل معه إلى أن يموت.

وقيل أن الله فعل هذا حتى لا يستغل الكفار الحدث، فكل حدث سيستغله الكفار للوقيعة بين أهل الإيمان يجب علينا أن نتجنبه.

{لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ} **أي** من {ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ} أي من هؤلاء من سيؤمن أو من في أصلابهم ومن ذرياتهم من سيكون مؤمنًا، لأجل ذلك أبقاهم الله –سبحانه وتعالى–.

{لَوْ تَزَيَّلُوا۟}: **أي** امتازوا وابتعدوا –هؤلاء المؤمنين– عن الكفار، {لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} فهناك حكمتان، فإذا غابت الحكمة الأساسية؛ أي إذا خرج المؤمنون الذين بداخل مكة الذين لم يكن أحد يعلمهم، لنزل العذاب على الكفار.

وهذا أمر عجيب حيث أن أهل الإيمان يكونون حاجزًا من نزول العذاب، فوجود طائفة مؤمنة في مكان تمنع نزول العذاب على هذا المكان، **فوجود الطائفة المؤمنة هم الأمن الحقيقي لأي بلد**، فمنع نزول العذاب في أي مكان يكون بوجود المصلحين، قال الصحابة للرسول -عليه الصلاة والسلام-: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال (نعم إذا كثر الخبث)[١٢]، فنحن نريد أن ندافع القدر بالقدر؛ ندافع نزول هذه العقوبات القدرية بالإصلاح.

فلابد أن تفهم وأنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتسعى وتجتهد في الصلاح والإصلاح أن لك دورًا في منع نزول العذاب، فهذه الطائفة المصلحة عندما تَقِلّ، ينزل العذاب، وهذه خطورة أن يترك المصلحون بلدًا، فهذا ستكون عاقبته سيئة.

ماذا فعل الكفار وماذا فعل المؤمنون أثناء الصلح؟ هذا ما سنذكره بإذن الله -عز وجل- المرة القادمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

[١٢] عن زينب أم المؤمنين [:اسْتَيْقَظَ النبيُّ ☐ مِنَ النَّوْمِ مُحْمَرًّا وجْهُهُ يقولُ: لا إلَهَ إلّا اللَّهُ، ويْلٌ لِلْعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليومَ مِن رَدْمِ يَأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثْلُ هذِه وعَقَدَ سُفْيانُ تِسْعِينَ أوْ مِئَةً قيلَ: أنَهْلِكُ وفينا الصّالِحُونَ؟ قالَ :نَعَمْ،إذا كَثُرَ الخَبَثُ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٠٥٩] • **صحيح** • [أخرجه البخاري (٧٠٥٩)، ومسلم (٢٨٨٠)